غادة السمّان

عيناك قدري



منشورات غادة السمان

اهداء

ابي ...

بصمت وتواضع :

اليك من نزف المعركة ،

بعد ما علَّمتني كيف أحارب قَدَري

غادة

نوافذ البناء الواسعة المضيئة تنظر إلى الشارع المزدحم كأنها عيون كبيرة بلهاء .. وهي وراء إحدى النوافذ رصينة جامدة كعادتها، انكبت على بعض الأوراق حتى كادت تلصق بها وجهها ، كأنها تهرب إلى أوراقها من عالمها .. ولماذا الهرب ؟ ..

لا شيء في حياتي سوى عملي .. أنا سعيدة .. لا شيء ينقصني .. أملك حريتي وقدري كأي رجل في هذه المكاتب .. أنا حرة سعيدة ..

سعيدة ! .. لماذا تظل تكرر لنفسها انها سعيدة ؟

عماد قال لها ذات مرة : « عندما نكون سعداء فعلاً لا يخطر لنا أن نتساءل إن كنا كذلك أم لا ؛ السعادة تصبح جزءاً منا . انك لا تتساءلين إذا كانت يدك في مكانها أم لا .. نحن نتحسس الأشياء عندما نشك بوجودها .. »
لماذا تستعيد كلماته بهذا الحنين ؟ انها لا تحبه ..

لا .. لم تحبه قط .. كانت تتسلى به كما يداعب أبوها جارتهم الحسناء كلما التقاها على الدرج .. وكما يتلهى أي رجل في المدينة بالفتاة التي تروق لعينيه .. وهي « رجل الدار » .. لقد نجحت في أن تكون « رجل الدار » .. نجحت في تحقيق قضيتها .. انتصرت .. **ولكن قضيتك كانت فاشلة منذ البداية .. كنت تحاربين الشمس .. تريدين أن تشرق من الغرب .. أن تخرس الأمواج وأن يضلّ الليل طريقه إلى دروب المدينة ..**

.. لقد انتصرت .. انها فاشلة كبيرة .. أفكارها تمزقها .. تحاول الانكباب

على المصنف أمامَها .. لا تستطيع .. انها تتعذب .. تكره أن تضعف حتى أمام نفسها .. انها تتعذب .. تعيش مرارة نصر عجيب .. لماذا لم يقتلها أبوها يوم نبأوه بأن بنتاً خامسة ولدت له ؟ ..

بنت !

جاءت بوقاحة ، وبالرغم من تهديداته لأمها .. بالرغم من تمائمها وأدعيتها وذعرها ..

لماذا أبعدوه عن فراشها عندما ثار وأرغى وأزبد وهجم عليها بسكينه يريد ارجاع الطفلة إلى بطنها بالقوة ؟ كان يريد صبياً بعد بناته الأربع .. وريث أمجاد دكانه وحلقته على رصيف الشارع .. وريث نرجيلته .. لا يريد لجمرها أن يخبو بعد وفاته .. لماذا لم يَدعُوه يقتلها ؟ ..

يريد ولداً يسميه طلعت .. اسماها طلعت !! .. يريد صبياً لا يضطر لسجنه في الدار بعد أن يفوز بالشهادة الابتدائية .. لا يخاف عليه من السير في الشارع وحده ! ..

وهي قد وعت قضيتها منذ البداية .. منذ اكتشفت ان اسمها طلعت .. منذ البداية وهي تكافح ضد الشمس .. تتعلق بأذيالها وتشدها كي تشرق من الغرب ..

أصرّت على اتمام دراستها بعناد كان يثير في نفس أبيها سروراً خفياً يفشل في إخفائه .. لم يعد يخاف عليها من السير في الشارع وحدها .. إنها لا تتهادى بدلال .. لا تعني بمظهرها .. لا تثير اهتمام أحد .. تكره الرجال والشباب . لا .. لا تكرههم .. الكراهية اعتراف بوجود الشيء المكروه وهي لا تحس بوجودهم على الاطلاق .. لا تريد أن تحس بوجودهم .. وإلا فلماذا ترفض الدخول لتحية أية خاطبة شاء لها حظها العاثر أن تدقّ بابهم ؟ ..

أحزان مبهمة تنمو في هدوء صمتها وفي غمرة احساسها القاتم نحو أبيها ..

ترى فيه عالمها .. مجتمعها .. تتحدّاه .. تكرهه كراهية شفافة لا حقد فيها .. تشفق عليه .. تريد أن تكون رجلاً كي ترضيه .. كي تذله .. تدفع أي ثمن لنصرتها .. تريد أن يشعر بأنها تساويه .. تريد أن يحبها ، لأنه يحترمها لا لأنه يشفق عليها كما يشفق على اخوتها وعلى أمها .. كان من الممكن أن تكون كأمها الذليلة .. انها تثأر منها ولها .. تنتقم من ضعفها وتنتقم لضعفها في كل صف اجتازته .. في كل شهادة فازت بها ..

يوم حازت شهادتها الجامعية رمتها بوجه أبيها كأنها تصفعه .. وفي المساء رمقته بنظرة تحدّ قاسية عندما فاجأته يغازل الجارة على الدرج .. لم تتجاهلها بكبرياء جوفاء كعادتها .. انها سعيدة باحترامه لها .. سعيدة بإذلالها الخفي له .. سعيدة .. يجب أن تكون كذلك ..

بعد شهر واحد يتجمع لديها مبلغ كافٍ لشراء سيارة .. سيارة صغيرة لها وحدها .. سيسهل عليها التنقل بين أماكن عملها الكثيرة .. الدائرة في الصباح .. مكتب الشركة بعد الظهر .. الدروس الخاصة ليلاً حتى الحادية عشرة حين تعود إلى الدار منهكة ثائرة تصيح في وجه أمها لأن طعامها لم يجهز ثم تنتقده مهما كان نوعه ، كما يفعل أي شاب في الحي .. ألا تجلس مع أبيها كل أمسية تناقشه في السياسة والمشاريع والدخل القومي ؟ .. ألا تدخن نرجيلته بينما هو يضحك فرحاً بها وفرحاً بظلال الذعر والعجز في عيني أمها ؟

تشعر فجأة بأن جمرات النرجيلة تحرق خدها .. وان دخانها يخنقها .. وانها تود لو تدفن خيبتها في صدر أمها وتحدثها وهي ترتعد عن عماد .. كم تتمنى أن تعيش معه .. يتشاجران ويتعاتبان ويلاحقها بين جدرانه الصفر وهي تعاتبه كعصفور فاجأه الربيع .. ويجلسان أمام الموقد في ليالي الشتاء .. يعد لها القهوة بيده وترشفها من فنجانه وينصتان لأنامل المطر التي تدق نافذتها .. ولا يفتحان النافذة حتى الصباح التالي ! .. ما هــذه الخواطر

السخيفة ؟ انها لا تحب عماد.. كل ما في الأمر ان المصنف بين يديها قد انتهى وان عليها أن تجلب سواه وتغرق في عملها .. تنظر إلى ساعة يدها .. لم يحن موعدها مع سلوى بعد .. تستطيع أن ترتب مصنفات اجتماع الغد .. تنهض نحو الخزانة الحديدية في ركن الغرفة.. تفتحها ولا تسمع أنينها البارد. تخرج مصنفاً .. تستدير لترجع إلى مكانها .. تقع نظراتها على شبحها المتهالك على الزجاج أمامها .. لا تدري لماذا تتأمل نفسها بفضول .. مظهرها عادي .. بذلت كل جهد كي لا تثير في الناظر إليها أي انفعال .. إنها جميلة .. تعرف انها جميلة لولا نظارتها السوداء التي تخفي عينين مدهشتي البريق .. جوع ونهم ، وحنين وحرمان تختلط فيها مع ظلال حمر لكاهنة شهوانية نذرت عروساً لإله من رخام .. جميلة لو انسدل الشعر المشدود بقسوة إلى الخلف ، ولو خلعت رداءها الواسع السميك بياقته التي تشبه ربطة عنق رجل ، ولو برزت بعض ملامح خصرها النحيل كطوق ياسمين .

عماد وحده كشف سرها يوم رآها للمرة الأولى في الشتاء الماضي عندما جاءت تلقي على أخته دروساً خاصة في اللغة الانكليزية .

قالت أخته : « أستاذة طلعت .. أقدم لك أخي عماد » .. نظر إليها .. لم تتجاوزها عيناه المتفرستان كما يفعل الرجال جميعاً .. ظلتا تتأملانها ببطء .. عينان عميقتان خضراوان تجوسان وجهها كعاصفة عطر مثيرة.. وأحست أن نظراتها تنتزع عن وجهها النظارة السوداء .. ترمي بها قرب قدمي أخته .. تحل ربطة شعرها بحنان وتدغدغ آلام الحصل المشدودة .. نظراته تعريها من ألقابها وشهاداتها وردائها .. تزحف برعونة لذيذة فوق ذراعيها .. تبعث فيها دفء شمس لم تلمسها .. تنحطّ بثقلها على الصدر فيزداد شموخاً ويرتعش في حناياه شيء ما ويتخبط .. تعصر الخصر فيترنح بلذة عناقيد أثقلها الطيب .. رحلة نظراته في مجاهل عوالمها أرهقتها ، كشفتها .. جعلتها تشعر انها مضحكة وسخيفة .. وانها ليست الأستاذة طلعت .. وانها ليست

سوى ممثلة اكتشفت فجأة ان ثيابها مضحكة وان دورها مضحك وانها بحاجة إلى البكاء في صدر ما .. وأحبّت عينيه يومئذ .. ولم ينقذها من ارتباكها إلا ترحيبه الذي خيل إليها انه يفيض سخرية :

– سمعت عنك كثيراً يا أستاذة طلعت .. أهلاً وسهلاً .. ابتسامته بعثت في أطرافها دفئاً مفاجئاً مسعوراً .. ابتسامة رجل لامرأة .. ما أروع وما أسوأ أن تكون امرأة ! ..

ولكنها جلست برصانتها المعروفة .. كررت الدرس لأخته ببرودها المعروف .. صافحته ببلاهة قبل أن تمضي .. ولما غادرت الدار أحست أن عينيه تطلان من غيمة معلقة قرب أحد أعمدة الكهرباء .. تضحكان منها بسخرية .. تتحديانها . لا تدري لماذا خلعت نظارتها بعصبية وبللت شفتيها الجافتين بينما تدلت السفلى متعبة مثقلة . وليلتها وقفت طويلاً أمام مرآتها قبل أن تنام تحصي كنوزها برضى البخيل وحرص البخيل وخوف البخيل حينما يشعر بأنه لن يستطيع إلا أن يدفع وأن يمنح ..

وقد منحت ! .. منحت أكثر مما تستطيع أن تمنح أية امرأة .. منحت الكثير لعينيه ..

لماذا تستعيد هذه الحكاية السخيفة ؟ المصنف بحاجة إلى ترتيب .. لا .. يجب أن ترتكز أفكارها .. هذا أسلوب المراهقات في الخيالات .. يجب أن لا تذكره .. تريد أن تذكره .. تريد أن تستعيد تلك الأيام لحظة لحظة .. تتلمظ بالذكرى .. لماذا أهرب من التفكير به وكأنه شيء يخيفني ؟ .. إنه لم يعن شيئاً بالنسبة إليّ .. انها مغامرة كأية مغامرة لأي شاب .. جميع الشباب يستعيدون ذكرى مغامراتهم .. هدأت نفسها لهذا التعليل وخيل إليها أن عينيه تزدادان خضرة وغموضاً ..

لقد منحت ! .. أجل .. منحت الكثير ..

يوم مرضت أخته أصرّ عليها أن تبقى .. جلسا معاً يتحدثان .. أعد لها

القهوة بيديه .. القهوة رائعة عندما تشربها معه .. تختلف عن طعم القهوة في هذا المكتب .. الزمان يجمد أمام نظراته .. حديثه الذكي يخاطب أنوثتها .. يتجاهل نظارتها السوداء .. يثير ضعفها وحنينها إلى ما لا تدري .. لم يكن في عباراته جملة واحدة للأستاذة طلعت .. انه ينكرها ويستنكرها .. يتجاهلها .. وظلت أخته كريمة مريضة .. وظلت تزورها لتطمئن إليها أو لتطمئن إلى انها ما زالت مريضة .. لا تدري .. كانت تريد أن تكون معه .. تشرب قهوته .. يحدثها .. يدفئها .. نظراته تجردها من الاستاذة طلعت .. تهدأ تستريح .. تتعب .. لا .. لم تكن تذهب من أجله وإنما كانت تطمئن إلى أخته ..

ويخيل إليها ان عينيه تضحكان .. تشدانها .. لترى الأشياء من جديد خلالها .. **كاذبة .. لماذا ظللت تزورينه في الصيف بينما أخته وأهله جميعاً في المصيف خارج المدينة ..**

كنت أتسلى كأي شاب .. كأبي .. كزميلي في العمل ..

تدفن رأسها بين يديها .. تعرف انها تخدع نفسها .. لم تكن تتسلى . انها قضية حقيقية كانت أكبر من أن تواجهها .. هربت منها .. هربت من شفتيه النهمتين وهما تجوسان وجهها في ليالي الصيف ..

كان حنانها يمزق أقنعة برودها .. فتنهد على صدره .. تخفي رأسها بين رقبته وكتفه . تدفن دمعة لا تريد له أن يراها .. .. وهو يفهمها ويتجاهلها ويحبها .. وهو يقول انه يريد أن ينقذها من نفسها .. وترفع رأسها وهي تضحك..تعرف ان ضحكتها لم تخدعه..نظارتها لم تخدعه..لا تستطيع أن تخدعه.

وفي الخريف منذ شهرين .. وقبل عودة أهله من المصيف عرض عليها أن تشاركه حياته ! جمدت ، ضحكت ، ذعرت لكلماته . ثارت « الاستاذة طلعت » . كادت تهوي . غلبها حنين مبهم إلى دار تفور في إحدى زواياها أبخرة طعام أعدته بيديها ، ووقفت خائفة تنتظر أن يتذوقه ويثني عليه كأنما

تعلق مصير عمرها كله برضاه وإعجابه .. كادت تقول نعم . تستحيل إلى انثى . الانثى ماتت يوم اسموها طلعت . ماتت . تماسكت فجأة وأعادت نظارتها السوداء إلى عينيها كأنها سدّ تحتمي به منه .. تعلقت بثوبها ذي الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل والذي انطلق هارباً إلى دارها .. لم تبك .. لم تقل شيئاً .. جلست مساءً كعادتها تسمر مع أبيها وانكبت على نرجيلته .. أمها تروح وتجيء بالجمر .. والدها يقهقه ضاحكاً خاضعاً .. وهي كالنمرة ، كآله اسطوري تنفث الدخان من فمها ومنخريها .. ولكنها لما أوت إلى غرفتها ، خلعت ثيابها في الظلام وانهارت في فراشها .. كانت تخاف حديث المرآة ! .

انتصرت .. لكن صوته ظل يتململ في عتمة ستائرها : « سأنتظرك كل أمسية في داري .. ستعودين يوم ترين الأشياء بعيني .. وتجدين نفسك .. ستعودين » ..

ولكنها لم تعد .. انتصرت ولم تعد .. ترى الأشياء بعينيه بعض الأحيان ، ولكنها تتمرد ولا تعود : **لقد انتصرت في أن تهزمي نفسك .. قضيتك منذ البداية كانت فاشلة .. نصرك فيها أعظم فشل .. أنت فاشلة كبيرة أيتها المرأة الرجل !..**

تقرأ بعض الأرقام في الملف أمامها بصوت مرتفع . صوتها لا يحميها من أفكارها .

زميلها في الغرفة يتململ . تعود إلى صمتها .. يجب أن تسرع في اعداد المصنف . غداً اجتماع الشركة ، لشدّما أضحت تخشاه .. كلما وقفت لتتكلم بصرامتها المعروفة ، ينصت لها الجميع بإجلال وإكبار .. وفجأة تطل عيناه من مكان ما .. تهرب نظراتها إلى الملفات .. تنزلق عيناه على المنضدة الكبيرة وتقفزان عابثتين بين المصنفات والأرقام المعقدة ترثيان لها .. تغمزان لارهاقها .. تقهقهان ساخرتين .. تذكرانها بالقهوة الدافئة ودبيب أنامل

المطر على نافذتها .. تثيران حنينها إلى مقهى يستند إلى بحر له شمس دامية الغروب .. وترقص الأرقام في الصفحات كديدان مرعبة كما ترقص الآن .. كما ترقص الآن ..

تتململ في مقعدها وتنفض عنها الخواطر . تنظر إلى ساعتها مستنجدة . انها تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق .. بعد نصف ساعة يحين موعدها مع سلوى .. ستخرج كي لا تتأخر . انها تتحرق شوقاً لرؤيتها ، لم ترها منذ أعوام .. منذ أن جاءت إلى المدرسة ضاحكة ونفضت عن يديها غبار الطباشير للمرة الأخيرة ، فالتمع في أحد أصابعها خاتم ذهبي غاص قلب طلعت لمرآه .. واختفت .. وقالوا انها تزوجت .. وقرأت بعد أعوام انها أنجبت ولداً . جميل من سلوى أن تذكرها وتهتف لها بعد كل هذه الأيام طالبة مساعدتها في اللغة الانكليزية . قالت انها سترحل مع زوجها إلى انكلترة بعد أشهر ولا تريد أن تبدو بلهاء هناك .. وضربت لها موعداً ظلت منذ أيام تنتظر حلوله بفارغ الصبر . تريد أن ترى سلوى وتتشفى برؤيتها . تتمنى أن تشفق عليها ، تتخيلها سمينة مشققة اليدين ، أنفها محمر بعد شجار حار مع زوجها ، تنظف احدى النوافذ بينما ريح الشتاء تصفر في غرف الدار وتلسع طفلها الذي يبكي .. واثقة من انها هي سترى سلوى هكذا ..

تخرج من المكتب دون أن تودع زميلها في الغرفة . لا يرفع رأسه إليها : لقد اعتاد ذلك منها ، عامل المصعد يفتح لها الباب مرحباً . لا تنتبه لوجوده ، يتوقف المصعد . يفتح بابه . تخرج . لا تنسى التأكد من عنوان سلوى قبل أن تضيع في زحمة الشارع . تحاول أن تتسلى عن خواطرها بمراقبة العابرين . الوجوه كلها متشابهة . كلها تحمل قلقها وخيبتها وتمضي إلى مكان ما .. تتغير الملامح والألوان .. يشدها جميعاً خيط مبهم من الحسرة والخيبة .. كأنما لا ترى إلا نفسها في كل شيء .. وعينا عماد ترصدانها ، تلاحقانها .. تثيران حنينها إلى رائحته وشبابه .. شخصيته المثقفة وطموحه .. تتمنى أن

تغفي عند جذوره ليمتصّها قطرة قطرة .. لن ترى الشمس إلا خلال وجوده .. ترتعد .. انه برد الشتاء بلا ريب .. يدبّ في شريط المخازن الطويل ويتغلغل في ذرات بردى المتعبة حيث تمر ، ويتكدس في أعماقها ثم يطفو عند أناملها بزرقته المريضة ..

تسرع في مشيتها . تخلّف بردى متجهة نحو محطة الحجاز لتمتطي إحدى السيارات العامة .. ساعة الحجاز تطل عليها كامرأة مصلوبة في صدر الشارع كأنها سيزيف المدينة .. عقرباها يكادان أن يشيرا إلى الثامنة .. نظراتها قد تسمرت بها بينما هي تسير نحوها كدمية متحركة عُبّئت مسنناتها حديثاً .. يخيل إليها انها تسمع دقاتها .. أبداً تدور مثلها .. الساعة السابعة تخرج إلى العمل .. الثالثة ظهراً تأكل .. الخامسة .. تخرج .. لا جديد .. هي لا تملك إلا أن تعمل .. الساعة لا تملك إلا أن تدور .. تدق .. دقة واحدة .. دقتين .. ثلاثاً .. أربعاً .. ثمان .. لا تبدع شيئاً ..

يكاد العقربان يشيران إلى الثامنة تماماً .. لو تحدث معجزة مرة واحدة .. لو تعول الساعة برداً .. لو تهدأ لحظة وتستسلم عقاربها لاكداس صقيع الشتاء .. لو تنفجر .. تدق عشرين دقة .. ألف دقة .. لو تتخلى عن آليتها الذليلة الخنوع وتصرخ : « أنا متعبة .. سئمت عقاربي صريرها .. لن أدق الليلة ثماني دقات .. افعلوا ما تشاؤون » ويتجمع حولها رجل يخون زوجته وامرأة تشتم فتاة بادلت حبيبها السابق حباً بحب ، ورجال غاضبون لأن زوجاتهم لم يلدن ذكوراً ، وعوانس وحرّاس يسرقون عند مطلع الفجر بعد أن تنتهي مهمتهم .. يتجمعون جميعاً ويرجمون الساعة بينما ينهار زجاجها تحت الأقدام بلذة إله اختار مصيره ! ..

لا مفر .. درب خلاصها لم يولد .. الساعة تدق .. تمزق أعصابها .. تعد الدقات بحرص وحرقة عجيبة : دقة .. اثنتين .. عينا عماد تضحكان بسخرية .. الأستاذة طلعت ! السيدة طلعت .. خمساً .. ستاً .. دخان النرجيلة يتفجر في

صدرها .. سبعاً .. أبواق السيارات تقهقه ساخرة .. الكهل الذي عبر منذ لحظات يبصق باشمئزاز .. ثماني .. خرست الساعة .. عادت العقارب إلى دورتها اللامبالية .. صمت أزرق مريض يخيم على كل شيء .. تسرع في سيرها إلى دار سلوى .. ستنسى .. ستنغمس في عملها .. لم تعد تفكر في شيء .. لم تعد تشعر إلا بوخزات البرد الذي يصفع وجهها بينما السيارة الكبيرة تسبح في أنوار المدينة الباهتة .. تصل . تهبط . تسير بضع خطوات . يطاردها متسول بعناد مزعج . ليس بين نقودها قطعة صغيرة له . تقول له ذلك . تقسم له . يخيل إليها ان صوتها ضئيل كوجه طفل مريض .. يظل المتسول على إلحاحه كأنه يتعمد إحراجها . تشعر بحاجة إلى البكاء .. يمر بهما شاب .. يصيح بالمتسول أن يدعها . يذعن المتسول بسرعة ويختفي مع صدى صوت الشاب عند المنعطف . تحس بحاجة مجنونة إلى أن تركض وراء ذلك الرجل المجهول وتسير بجانبه . يحميها . يدفئها بصوته القوي الخشن .. مخلوق رائع هو ذلك الرجل ! ..

تقف أمام دار سلوى وهي ترتعد برداً . تتحقق من اسم زوجها على الباب قبل أن تقرع الجرس : « محمود سالم » . لم تخطىء الدار . تتسلل إلى أذنيها ألحان خافتة حنون . ليست هذه بالبداية التي توقعتها . كانت تنتظر عويل طفل . شجار زوجين ..

تضيق أنفاسها . تهوي بيدها على الجرس بانتقام أحمق لم تستقم ردود فعله بعد .. تفتح لها سلوى بعد فترة صمت طويلة . تضيء النور أمام الباب . تهوي نظراتها عليها وكأنما في وجهها جواب عن كل أسئلتها .. وتراها ويمزقها المشهد ! ..

جميلة نضرة .. يترقرق ندى النشاط في ملامحها المتوردة . مسامها تصرخ بأنها سعيدة وحارة .. تنكمش في ركن الباب .. البرد يفور في عروقها .. سلوى ترحب بها .. تمد يدها لتصافحها .. تهب غيمة دفء عجيبة على

وجهها .. وتضرب خديها بعد أن تنزلق على خطوط جسم سلوى البديع الذي بدا مرسوماً بالنور المتوهج وراءها داخل الغرف . تصافحها بيدها المرتعشة ، تلحظ انها أضحت امرأة مذهلة النضج والاكتمال ، تشدها سلوى من ذهولها إلى الداخل .. إلى حيث تغمرها غيمة الدفء .. دفء عجيب الرائحة يفوح من ثنايا الدار . يختلف كثيراً عن دفء المكتب والشركة والمؤتمرات .. دفء يذكرها بموقد عماد ..

وتجلس بعد أن تصافح زوجها وتتبادل معه كلمات المجاملة شبه منوّمة .. غيمة الدفء تسيطر على حواسها .. تغالبها وتكاد تغلبها .. فيها الكثير من رائحة ليالي غرفة نوم وردية معطرة .. وفيها من عبير حمام فستقي الرخام ترن بين جدرانه ورذاذه ضحكات نشوى .. وفيها من أبخرة حساء شفاف تبدو خلاله رسوم صحن أنيق .. وفيها من زقزقة طفل يزحف مبتسماً وتراه يتمسح بقدمي سلوى .. غيمة الدفء تمزقها ، نظارتها تلسعها .. الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل تضيق حول عنقها تضيق . تكاد تلهث . ترتعد . تسعل . سلوى تعانقها وتجلس بجانبها . ما أحلى رائحة العطر المنبعث من شعرها . ما أجمل عقدها الماسي . بريقه المضيء ذو الألوان المتعددة سكين من قوس قزح تغوص في صدرها .. يا لنعومة ثوبها . يا لجلدها الذي صبغته لمسات أنامل رجل وردياً شفافاً كفجر ..

جلست تحدثها وقد ازدادت انطواءً ، ستصمد ، ستتماسك . كم تبدو جميلة لو ارتدت مثل ثوب سلوى . « **دروس اللغة الانكليزية ضرورية فعلاً ، دعينا نبدأ منذ الآن** » عطرها رائع ، إذا التقت بعماد ستضمخ له جيدها به . «**احضرت لك كتاباً سهلاً ونافعاً** » . ما أجمل ساقيها في الحذاء ذي الكعب المرتفع . طفلها جميل تتمنى أن تضمه وتقبله .«**ما بالك يا سلوى مرتبكة..دعينا نبدأ** ». .لماذا يقترب زوجها ويقف وراءها كأنه يحتضنها؟ لماذا يعذبانها ؟محمود يتكلم . يبدو انه يقول شيئاً..« **عفواً،ماذا كنت تقول؟**» ..

ـ سلوى خجلة منك .. لقد نسيت ان الليلة عيد زواجنا ، لكنني لم أنسَ . اننا نعتذر منك ولكننا ستقضي سهرتنا في « شموع » . لماذا لا تسهرين معنا ؟ أرجو أن تقبلي ..

ـ شكراً لكما .. انني متعبة جداً . لا .. لن أشرب القهوة . يجب أن أذهب » .. تودعهما بشيء من الخشونة ، تنطلق هاربة من الدار العجيبة .. لا أحد يريدها .. طفلها الرائع ما زال يلوّح لها بيديه .. تخاف منه ، تشعر بالعجز أمامه .. إنها ساعة بلهاء .. لا تبدع شيئاً .. مجرد ذرة تافهة على هامش الحياة .. ساعة مصلوبة .. الزمان موجود سواء تمردت عقاربها أو دارت .. وهي تدور وتدور وعبثاً تدور .. غيمة الدفء انسكبت وراءها .. تلاحقها .. تدفع بها في الدرب إلى دار عماد .. لا تستطيع أن تقاومها .. جزء من غرائزها .. تحملها في ثنايا جسدها .. في نبضات قلبها المرتعش .. تطرد من صدرها دخان النرجيلة .. لماذا لا تنطفيء جمراتها ؟ .. الشمس لن تطلع . إلا من الشرق .. من يبارزها ؟ .. الليل يتحدى الدروب والابدية .. وهي تعرف الطريق إلى صدر عماد .. إلى دفء عماد وجدرانه الصفر المهجورة ؛ شيء ما ينفجر في رأسها .. عيناه تطلان من كل شيء .. من الجدران حولها .. من وجوه العابرين . من أصابع يدها التي تحاول أن تمسح بها النار عن جبينها . من معطفها حول رقبتها .. عيناه ، حارتان عاتبتان ممزقتان .. عيناه ، بكل ما فيهما من حنان وثقة وأحلام .. يمر رجل ويقول شيئاً ما . لا تسمعه . عيناه تطلان من كل شيء مجنونتين قاسيتين . ترصدانها كقدر . لا تستطيع أن تهرب من عتابهما اليائس .. « **يا عماد .. قل لي ماذا أفعل .. انتظرني** » متعبة .. تكاد تهوي .. رائحته تفوح من المطر ، من الاضواء، من أحجار الشارع . ألف الف تحبه وتخشاه .. ألف ألف تحنّ إلى شفتيه ، تطوفان مجاهل عوالم يخفيها ثوب ومعطف.. « **يا عيناك .. يا آفاق الرعب .. إلى أين أهرب ؟** » لماذا تهرب وهي ترسمها في كل منعطف ؟

يا ألف حنينها إلى جدرانه الصفر العارية : تهرب منها لترسم في كل زقاق داراً له تحن إليها ..

« عيناك قدَري لا أستطيع أن أهرب منها وأنا أرسمها في كل مكان وأرى الأشياء خلالها » . بذهول تردد : **« عيناك قدري »** .. الفكرة تنتشلها من عجزها ويأسها .. تدب في عروقها قوة عجيبة مدمرة .. تريد أن تخلق شيئاً .. داراً .. أسرة .. غيمة دفء .. تركض فجأة .. لا ترى الناس الذين يرمقونها بدهشة .. لا أحد يهمها . تركض .. شعرها يتبعثر .. نظارتها تسقط .. تتحطم تحت قدميها .. تركض .. المطر يبللها . سيارة مسرعة تنثر الأضواء على وجهها . تبتسم .. رائحة عماد في كل شيء .. في الظلمة والمطر والبرد والريح . كيانه المبهم يحوطها . يحنو عليها . يناديها . المصنفات تهرب أمامها .. الأرقام تقفز منها مسعورة . تدور في المياه المتجمعة . تذوب في وابل الأمطار وتنحدر معها في مجاري المدينة .. وهي تركض إليه .. ماذا ستقول له ؟ .. لن يكون هنالك متسع للكلام .. الشمس لن تطلع إلا من الشرق .. الامواج لن تخرس .. الساعة لن تدق الليلة تسع دقات .. عشر دقات .. ستهمس : **أنا سعيدة** .. سعيدة بين أبخرة غيمة الدفء .. ماذا تقول له ؟ يكفي أن تهتف : **« عيناك قدري .. لا أحد يهرب من قدره يا عماد »** ..

الإصابع المتمردة

المكان يعجّ بدمى حية ، وروائح العطور والأصبغة المختلفة تختلط بضحكات نساء جمعهنّ أمرٌ يشتركن فيه جميعاً ، ألا وهو الرغبة في لفت الأنظار ، والفوز بالإعجاب .. واحدة تحدق إلى صورتها المرتسمة أمامها في المرآة ، ثم تنقل نظراتها بسرعة فأر مذعور إلى عيني صاحبتها ، وكأنها تستجدي ومضة حسد تؤكد لها جمالها . وأخرى جلست تحت أتون من شمس آب يدعى « السشوار » مجفّف الشعر ، بينما أخذت المساحيق التي كانت تغطي وجهها تسحّ وتسيل ، فيبدو كاللوحة التي يخلط عليها الفنان ألوانه المختلفة .. وثالثة بعثرت شعرها الحلو كبيادر القمح السخية ، وأسلمته إلى الحلاق ليجزّه ، والحصل الذبيحة تترنح على شفة الموسى الحادة .. وإلى جانبها جلست تاتا « فاطمة » ، وقد امتقع وجهها ، وانقبضت أساريرها ، وكأنها تضع مولودها الأول ، وعلى رأسها أكداس كريهة الرائحة ، وضعها جاك الحلاق المحبوب ، لتحيل الحرير الأسود إلى صوف ماعزي أصفر !! .. فقد صرح دودي « دريد » صاحب الكاد « الكاديلاك » الحمراء المكشوفة في بارتي « حفلة رقص » على مستوى أبناء أصحاب الملايين ، بأن الرجال يفضلون الشقراوات .. والواقع انه حينما تعطّف ورمى قنبلته كانت أفكاره تدور حول بوسي .. قطته المدللة .. الشقراء !

وسط هذا الجمع الذي يتناقل الإشاعات كما يلتهم طعامه بلذة وبلاهة .. وقف جاك بقامته الفارعة وشعره ذي السالفين الطويلين وشاربيه الدقيقين اللذين كانا يثيران تنهدة أكثر من عجوز غنية .. وتمر الرؤوس تحت يديه ،

فهذا رأس أشقر مغرور .. ثم رأس كستنائي عجوز .. وبعده رأس أسود تتنهد صاحبته كلما لامست يد جاك طرف خدها .. فالليلة حفل المدينة الراقص الكبير .. وجاك اليوم بطل الساعة .. كل واحدة تتوسل إليه أن يجعل منها اسطورة السهرة ، وملكة جمالها غير المتوجة .. وكأن بقدرته أن يعيد خلقها ..

وهو يتحدث .. ويجيب .. يضحك ويغمز كالأمير الساحر .. يصفق حينما يطلب المقص ، ويضرب على الطاولة بطريقة موسيقية ، فتفهم نينا مساعدته الصامتة أنه يريد المشط أو الموسى ، حسب ايقاع الضربات .. الواقع أنه من الاسهل عليه بكثير أن يحرك لسانه ويطلب ما يشاء ، ولكنه يعرف أن هذه الحركات قد تبهر الجالسات ، وتضفي عليه شخصية خاصة .. وتجعله سيد من قصّ الشعر منذ آدم إلى يومنا بلا منازع . .

يتحرك بين النساء برشاقة راقص الباليه .. لا يرفع عينيه عن الكتلة القابعة أمامه إلا إذا فتح الباب .. حيث تتجه عيناه في نظرة خاطفة .. وفي قلبه دعاء صامت .. « أرجو ألا تكون سوسن » ... وغالباً ما تكون سوسن .. إذ أنها مغرمة بأصابع السيد جاك الذي كان ذات يوم « ابن جيرانها » في حي قديم .. ولكنها اليوم تعرف جيداً كيف تحافظ على مركز زوجها المرموق — بالرغم من عشاقها العشرة — .. وتعرف كيف تتجاهل صديق الطفولة الذي طالما انتظرت مروره في الزقاق المعتم وراء نافذتها الضيقة .. فهي اليوم السيدة (...) زوجة السيد مليونير ! ..

وجاك يعمل بسرعة مذهلة .. يزمّ شفتيه ويقطب جبينه قبل أن يبدأ بتمشيط إحداهنّ حتى ليخيل للمرأة أنه حائر في اختيار أنسب تسريحة تبرز جمالها الفتان .. حتى إذا ما انتهى منها التمع في عينيه بريق ساحر يشبه الإعجاب ، ثم يميل برأسه إلى أحد الجانبين كأنه فقد صوابه أو كاد لجمال المنظر .. ويهمس برقة متناهية : غائعة « أي رائعة » ! وفي الأغلب تكون هذه الكلمة

موجهة لشتاء امرأة عمل جاهداً على نبش ونفش ما تبقى من شعرها الذابل .. ويكون الشيء الوحيد الرائع هو .. جهوده الجبارة ! .. فتندّ عن شفتيها المتهدلتين بسمة تظهر صفاً من أسنانها الاصطناعية البديعة .. بسمة لحلاق النساء المرح ، وصانع الدمى الماهر لسهرة المدينة الكبرى !

وهو يدور بين النساء .. ويضحك من نفسه ! من بسماته الآلية وتعليقاته السخيفة .. من اللامعنى الذي تنطوي عليه كل حركاته .. ويشعر بالاشمئزاز من ذاته .. من ذله وصمته .. ولكن ذلك كله جزء من رأسماله الذي يعيش به . يشتري به خبزه .. وزوجته .. وثيابه !

ها قد مرت عشرة أعوام وأصابعه الطويلة الدقيقة تتحرك بآلية مفجعة ، بينما تلف الرؤوس تحت يديه .. وتتغير .. وهو واقف .. يعدّ الحسناء للقاء حبيبها .. والعروس لليلة زفافها .. وسوسن لعشاقها .. كالجائع في وليمة يعدّها بنفسه للمتخمين !

وتكر الأيام والشهور .. والرؤوس تدور وتدور .. وتمر تحت يديه .. حتى صارت بالنسبة إليه رأساً واحداً وحشياً .. يعيد ويعيد قص شعره وصبغه وتمشيطه كل ثانية .. منذ ولد وحتى يموت .. وتجمّع قدره الممل الفارغ بين ساقي مقص رهيب .. يشعر بأنه لن يقوى قط على اختراقه .. لأنه جبان ! وهو يعرف أنه جبان .. انه يجهل كيف يصادق أو يشكو أو يحب .. بالرغم من العواطف التي يضجّ لها صدره .. انه جبان ! وقد اعتاد خوفه وضعفه كما اعتاد كل شيء .. الاشاعات والفضائح التي تقصّها إحداهنّ بعد أن تقسم عشر فتيات أو أكثر على كتمان .. السر ! وتنهدات العوانس ، بين يديه وتحديقهن المرعب إلى شاربيه وشفتيه .. وكأنه سلعة في سوق العبيد ! .. واعتاد أن يرى أنظار النساء جميعاً تتسلل نحو الباب كلما دخلت امرأة جديدة .. فتفحصها العيون النقادة بقسوة .. كأنها تصفعها .. ثم يبدأ الهمس لاحصاء عيوبها التي لا يلحظها الرجل عادة أو يعجب بها على

الأغلب .. لقد اعتاد ذلك كله .. واعتاد أن يقص شعر سوسن .. ويصفّفه .. ويعدّها للقاء عشاقها . وكأنه مجرد آلة شوهاء .. كم كان يتمنى لو تمردت أصابعه ذات يوم .. ولكن كل شيء يدور حوله ويدفعه .. وهو واقف بسلبية ذليلة .. كل ما في الأمر أن أصابعه تعمل بميكانيكية حيوانية مريعة .. تدمي أعماقه الإنسانية المعزولة . تدمي كيانه البشري الذبيح .. أجل ! إن رؤوسهن باردة فارغة.. كعيونهن الملطخة بستائر الكحل..انها متشابهة إلى أبعد حد.. كرؤوس الخراف التي كان يذبحها أبوه الجزار كل صباح..فيسيل دمها المسفوح على قدميه .. ويلطخ ثيابه .. ويهتز شاربه الكبير لذة وطرباً كلما طار رأس الخروف واستقر على الأرض .. كانت لذة أكثر بكثير من مجرد اعداده للسلخ والبيع واستغلاله في الكسب الحلال .. كان في عمله وسيلة مشروعة لاشباع تمرده .. رغبته العقيمة في الخلق .. لقد فشل في أن يخلق خروفاً فكان عزاؤه في .. قتل الخراف ! وجاك لن ينسى قط يوم حاول أبوه أن يجبره على ممارسة مهنته .. كان ذلك قبل وفاته بعام واحد .. أي حينما كان جاك في السادسة عشرة من عمره .. انه ليذكر جيداً كيف رمى بالسكين التي دفعها اليه أبوه وتفجرت الدموع من عينيه وكأن طفولته المهملة تجمعت في هذه اللحظة المريعة .. بينما ضرب والده الخروف المسكين ، بلذة وجبروت كعادته ، وكأنه إله بين مخلوقاته .. وقال لابنه باحتقار وغضب محموم : « اضرب يا جبان .. ماذا تخشى »؟

منذ ذلك اليوم تأكد أنه جبان .. ولم يجرؤ على الاقتراب من فراش والده الذي مات وهو يهذي بالخراف المذبوحة ..

ومرت به الأيام ، ولكنه ظل دائماً خصلة الأعشاب البحرية الرخوة المستسلمة للتيار .. يوم أخرجته أمه من المدرسة ، بعد وفاة أبيه ، لم يعترض . لم يقل لها إنه يهوى الدراسة ، وأنه متألم ووحيد وضائع ، وأنه يحب سوسن ابنة جيرانه الحسناء ويتمنى لو أنها كانت له ..

وهو لم يقل شيئاً حينما كان يجد في مخدع أمه قفازاً في الشتاء وربطة عنق حمراء في الصيف ! ولم يقل شيئاً يوم أخذته أمه ليعمل مساعداً لحلاق ادعت انه قريب المرحوم والده .. ولم يقل شيئاً حينما وقعت نظراته المذعورة على عنق هذا الحلاق القريب .. ورأى أن ربطة عنقه حمراء : كالتي كان يجدها في غرفة أمه !

فُتح باب المحل فجأة .. فاستيقظ من أفكاره .. حمداً لله .. انها ليست سوسن .. سوسن التي أحبها دائماً .. بالرغم من كل شيء أحبها .. ان التفكير فيها يعيد إليه بعضاً من انسانيته الضائعة .. يؤكد له احساسه البشري .. ولكن .. عندما يزينّها لعشاقها.. وعندما تنظر إليه بعينيها البلهاوين المتجاهلتين ، يشعر بانسانيته الذليلة ، بعمره الضائع وفشله المرير ..

وحين تأمره بأن يقص شعرها الذي يعبده .. يحس بآلام رهيبة في أصابعه .. ويتمنى أن يرفض .. يتمرد .. أن يفعل شيئاً .. ولكنه جبان كما قال أبوه !

إنه ليذكر جيداً كيف كانت تقف إلى نافذتها الصغيرة قبل أعوام طويلة .. تنثر شعرها المغسول متظاهرة بتجفيفه .. فيخيل إليه انه يشم عبيره مسكراً منعشاً كغابة صنوبرية عذراء .. كم كان يعبد تلك الخصلات المبعثرة .. ويتمنى أن يجمعها بشفتيه .. ويدفن فيها وجهه .. ويحكي لكل شعرة الف والف غزل ! ولكنه كان جباناً حتى معها .. في طفولته لم يكن ليجرؤ على ضربها حين كانت تنتزع منه لعبه .. وفي مراهقته تمنى أن يقبلها ذات مرة .. ولكنه لم يستطع ، بالرغم من أن عينيها كانتا تدعوانه بنداء حار كنسيم السهول الاستوائية ..

وليلة اشترى غمازتيها الحلوتين رجل غني .. لم يجرؤ هو على الشكوى .. كان دائماً مستسلماً وجباناً .. ومضت سوسن .. وخلفت في أعماقه جرحاً مفتوحاً تأكله ديدان الليالي بشراهة ووحشية .. وتألقت سوسن ، وتناقل

المجتمع حكايا عشاقها الذين كانت تنثرهم حولها كما تنثر العطر على صدرها المثير .. وكان يسمع كل شيء .. ويعرف كل شيء .. ولا يملك إلا أن يزينها كلما جاءت ويقصّ الشعر الذي يعبده بميكانيكية مفجعة غريبة ، فقد غلبت الآلية على انفعالاته كلها حتّى كان حزنه على أمه يوم توفيت جزءاً من واجباته الاجتماعية .. جزءاً من الوجه المرضي الذي يقابل به الناس ويدفعون له ثمنه زوجة وخبزاً . وتزوج .. وكذب .. وخدع .. وأتقن فن الفنون : الرياء الاجتماعي .. فتألق وأصبح جاك ، حلاق الطبقة الارستقراطية ..

كم يتمنى ألا تأتي سوسن اليوم .. وكم يتمنى أن يضمها إلى صدره المتعب طوال عمره .. انه بحاجة إلى امرأة تمنحه ما لا يباع ولا يشترى .. وسوسن بالنسبة إليه تجسيد غريب خاطىء لهذه الأماني المبهمة ..

وفجأة .. انشق الباب عنها .. كان لا بد من أن تجيء استعداداً للحفل الراقص .. دخلت وشلال من ظلام ينسكب على كتفيها ، ويعربد على ظهرها البديع .. وخصرها النحيل يهتز بدلال مثير .. وثوبها الأحمر الضيق يعانق جسدها بشدة ويوحي للناظر بأنه شفاف .. وبأنه سخي كريم في عطائه للعيون النهمة ..

وجلست إلى الكرسي أمامه وقالت بصوت أبح : « أريد أن أقصّ شعري وأصبغه أحمر » ! وتمنى أن يرفض ، أن يصرخ ولو مرة واحدة في عمره : أنا أحب شعرك يا سوسن .. شعرك الأسود الذي طالما حكيت لكل شعرة فيه مأساة وأملاً .. وألف أغنية غزل .. وأرفض أن أقصّه .. لأنني إنسان .. لأنني لا أريد .. لي ارادتي .. لست جباناً » .. ولكن يده الذليلة تناولت الموسى وبدأت تعمل .. يبطء في بادىء الأمر .. والأفكار تضج في رأسه : يا لصوتها القبيح الذي سمعه .. لشد ما غيّرتها الأيام .. ماذا فعلت بالضحكة الرنانة كالذهب المسفوح ؟ تريد أن تقص شعرها الذي يعبده .. وهو بالذات بدأ يفعل ذلك بذلّ ممزق مريع ! إنه لم يعد إنساناً .. إنه جزء من المشط

الذي يمشط شعرها .. يده مجرد امتداد عظمي للمشط العاجي .. انه جزء من الأثاث الفاخر .. قطعة من قطع « السشوار » التي تعد رأسها للحفل .. انه يفقد الآن كل ما بقي له من إنسانيته الضائعة .. لقد تجمّع عذاب عمره كله في هذه اللحظة الأبدية بطولها .. ان صراخ النساء وجلبتهنّ طوال عشرة أعوام قد تجمّع الآن في أذنيه .. ضارباً رأسه المتعب بقسوة عجيبة .. لقد سئم نفسه .. سئم خيوط القدر التي تشده وتحركه كعروس خشبية .. والمرايا التي تعكس لوجهه عشرات الصور من كل زاوية .. ورأى أن وجهه مخيف .. مخيف كوجه أبيه حين كان يذبح خروفاً .. ويصبغ رأسه بالدم الأحمر .. وسوسن أيضاً تريد أن تصبغ رأسها أحمر ! صوت أبيه يدوي في أذنه .. اضرب يا جبان .. **كم يتمنى أن يغرس الموسى الحاد في عنقها الأبيض .. أن يغرسه بقوة ووحشية ثم يديره في الجرح حتى يتدفق الدم الحار ويغسل يديه .. يغسل ذله وعبوديته .. ويصرخ بملء فمه .. « لست جباناً .. لن أقص شعرها » !** ولكنه لا يستطيع .. يعرف انه غير قادر أبداً على إخراج البراكين التي تنبع من صدره .. ولا تصبّ إلا فيه ..

إن أصابعه في حاجة إلى الحرية .. وبيديه حنين مجنون لتمزيق دوامة الشعر التي أخذت تلف وتدور أمام عينيه .. إن أصابعه الخنوع قد بدأت تتمرد وتثور بقوة شيطانية لذيذة .. وتفقد مرونتها الآلية الذليلة .. ولكنه يختنق في دوامة الشعر الأسود الطويل .. ولكل شعرة طرف حاد كنصل سكين ينغرس في عنقه .. ووسط الضجيج والعذاب سمع صوت أبيه يضج بالتحدي والتمرد : « **اضرب يا جبان** » .. وحاول بكل كيانه أن يضرب كما كان أبوه يضرب الخروف ويتلذذ .. حاول أن يركز في أنامله عصيانه المدمّر على كل أيامه .. على طفولته وأمه المهملة .. والرجل ذي ربطة العنق الحمراء .. ولكن التمرد ظل ، ككل أحاسيسه ، مخنوقاً .. دفيناً .. يمزقه .. ولكنه لم يضرب ! وإنما استمرت اليدان في قص الغدائر بذلّ إنسان متألم متعب ضائع ..

وأحس بأنه كان يلطخ نفسه بوحل أحمر قذر حينما كدس الأصبغة الحمراء على رأسها .. ولما انتهى ونظر إليها أدرك أنها ماتت.. وإن المدينة كلها ستحتفل الليلة بمأتم سوسن في أعماقه .. سوسن .. نجمه الوحيد الذي هوى ..

ومضت سوسن ومعها كل ما بقي له من نفسه .. ومضى الجميع .. ونظر إلى نفسه في المرآة ورأى أن وجه جزار يطل من عينيه ، ويصرخ فيه بسخرية محرقة : **يا جبان!** جبان .. وبصقته جدران محله الفخم إلى الشوارع الرمادية .. فسار مستتراً بالظلال وكأنه يختبىء من نفسه .. من خيبة عمره المهدور .. انه ذرة دنسة معزولة عن كل ما حولها .. يا لأصابعه المتمردة التي تتقلص في إعياء مريع .. كم تؤلمه ! وساقته قدماه إلى الضاحية الصحراوية التي أقيم الحفل الساحر في واحة وسطها .. الاضواء تتألق من بعيد .. فيبدو المكان لعينيه كجزيرة الهناء المحرمة .. وصوت الموسيقى الخافت تحمله ليالي الصيف لأذنيه مع ضحكات نساء .. لا ريب أن ضحكة سوسن بينها ..

ويشعر أن كيانه الإنساني يتشنج ويتفتت في صمت مفجع ، يزلزل أعماقه ، ويعصف بأعصابه .. ويتمنى أن يحدث أي شيء يدمر ما حوله .. أن يشعر بأن في الحياة ظاهرة طبيعية — على الأقل — تتجاوب معه .. ولكن كل شيء يظل في دورته الأزلية البلهاء — كل شيء يتحرك بآلية وخمّازة .. كعقارب الساعة .. كالشمس الذليلة ! حتى الشمس ، ما جرؤت قط على الظهور قبل أوانها .. وهو أيضاً .. آلة جبانة .. كملايين النمل التي تدب صباحاً وتعود مساءً .. بتفاهة مؤبدة .. يا للمدينة البلهاء السادرة في لهوها وصخبها وضجيجها .. دون أن تدري أنها تسحق نفوساً ونفوساً ! يا للمدينة التي تعربد وتضيء ، وكأنه ليس فيها قلوب متمردة يدمرها إحساسها بالعبث ، بالتفاهة ، والضياع !

كان قد اقترب كثيراً من مكان الحفل حتى ان الأضواء القوية أخذت ترهق عينيه .. وكأنه خفاش اعتاد ظلامه ، حاول أن يخفيها بيده .. فلم

يستطع .. لم يستطع تحريك يده !

لقد تمردت الأصابع ! واسترخت اليد إلى جانب الجسد الموهن .. **وفجأة أدرك بشيء من الذعر وبكثير من الارتياح المبهم أن أصابعه أصيبت .. بالشلل !**

ولا يدري لِمَ أحس بلذة وحشية غامضة تجتاح دهاليز أعماقه ، وبألم جبار عاصف كآلة تنفجر .. فتهالك على الارض ، وأسند رأسه إلى حجر أسود بجانبه .. بينما تدحرجت دموع حمراء من ثقبين مظلمين في وجهه ..

واقتربت منه قطة ضائعة .. وأخذت تعوي وتموء بطريقة إنسانية مسعورة .. فيها حرقة غريبة ولوعة مبهمة .. ولكن صرخاتها ضاعت مع دموع صانع الدمى .. في ضجيج حفل المدينة الكبير .

ما وراء الحب

أيها الإنسان الغريب الذي يقودني إلى شاطىء لم أره ودرب لم أطأها .. تراك ستمنحني الخلود حقاً بعدما فشلت في انتزاعه بنفسي ؟ تراك ستمنحني الخلود الليلة عند ذلك الشاطىء الأسود الغامض الذي طالما حدثتني عنه ؟

السيارة ما زالت تندس في احشاء الظلمة ، وقد خلفت أضواء المدينة وراءها .. تندفع بسرعة شيطانية كوميض عينيه ، تدور بنا في المنعطفات الساحلية الخطرة وأنامله الفنانة تتشنج فوق المقود .. وعيناي معلقتان بجانب وجهه المحبب .. بشفتيه اللتين ترتعشان كظل معبد في غدير حالم .. بالاصرار المبدع في انتصاب رقبته.كل ما فيه يذكرني يتحفز إله يستعد للحظة الخلق الحاسمة ..

عجلات السيارة تئن ذعراً من سرعة هيثم . صريرها في المنعطفات يفجّر في كياني نشوة تحدّ همجية .. انني أحيا وأحب.. لا أريد أن أموت. فالليل عجينة طيب ودفء ورؤى . وشذى زهر الليمون يفوح من البيارات المجاورة سحابات خفية ، تحملني في ثرائها إلى قمم فستقية لا تعرف الهرم .

ترى هل يستطيع هيثم أن يبعثني في لوحة تفوح منها أنفاس زهر الليمون ، ويسمع فيها هتاف الأمواج الابح ؟ لماذا أتساءل ؟ .. التساؤل بداية الشك .. وأنا قد اعتدت أن أؤمن به منذ التقينا للمرة الأولى في معرضه الكبير ..

يلذ لي أن أذكر تلك الأمسية من أواخر الصيف الماضي . كنت أحب الرسم وأمارسه منذ طفولتي ، لذا لم أتردد في الذهاب لمشاهدة معرض هيثم ،

فنان المدينة الأول ...

وهناك التقيت بعينيه البنفسجيتين ، وكانت تحيط بهما عشرات من العيون البله لفتيات يقرأن الصحف بالشوكة والسكين ويرتدين القفازات حتى أثناء النوم .. كن يتهافتن عليه ويضاحكنه .. لا أدري لِمَ وقفت أتأمله بإشفاق وذهول . مسكبة البنفسج في عينيه كانت جافة ، وكنت أعرف أنني غيمة عقيمة . كان يتظاهر بالمرح رغم سأمه ، ويضحك لصهيلهن الفاقع .. ولما مررت بهم هتف بي في غمرة مزاحه : « وأنت أيتها الغجرية .. هل تودّين أن أرسمك أيضاً ؟ » وبعناد بغل أجبته : « لا .. أفضل أن تعلمني الرسم » ..

أعجبته وقاحتي فعاد يسأل : « لماذا ؟ » .

– علّمني الرسم كي لا أموت .. كي أخلق لوحة استمرّ فيها أبداً ...

وتصادقنا .. وعلمني كيف أرسم ، وعلمته كيف يحب !

لكن مسكبة البنفسج ظلت عطشى في عينيه .. أتأملها الآن وأضواء لوحة القيادة الباهتة تماوج في سمائها .. ستظل عطشى لأنني لن أتزوج به .. وإن مضيت ، فأنا واثقة من انه لن ينساني أبداً .. لا يمكن لمثل هذا الشاب أن ينسى الفتاة الوحيدة التي رفضت أن تتزوج به رغم إلحاحه ، والتي آمن في الوقت نفسه بأنها أحبته حقاً ..

ألتفت إلى الوراء . المنحنى يبتلع أضواء المدينة . الناس يموتون هناك . لن أموت . بعد قليل نصل إلى الشاطىء المنشود ، سأقف أمام هيثم ليرسمني في ضوء القمر . ليبخرني بين أهدابه ويصعدني نجمة عند الأفق . ليبعثني دفقة في موجة وثنية الأهازيج . وردة مغارية في قمة ما عانقتها سوى الغيوم والنسور . لينبتني قصيدة هوجاء في جبين عاصفة .. أتراني أنحو بهذا الأسلوب ؟ أبي قال إن عليّ أن أصنع خلودي بنفسي وأن لا أحد يصنع للآخرين خلودهم ، وإنه لا جدوى من أن يرسمني هيثم .

ورغم رأيه هذا ، لم يعترض حينما ارتديت زي الغجرية ، ولم يعترض حينما غادرت البيت منذ وقت قريب وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، ولكن صمته كان يهذي ، وكنت أفهم هذيان صمته كما يفهم هذيان صمتي .. منذ طفولتي وأنا أتجادل معه دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة . صمته كان يعاتبني متخوفاً هامساً : **أرجو ألا يكون للعامل الذي صعقه التيار صباحاً أمام شرفتك صلة بتراجعك هذا .. لماذا قبلت اليوم بالذات أن يرسمك هيثم بعدما كنت ترفضين عرضه وتفضلين الرسم بنفسك ؟ الخوف والخلود لا يتفقان ..**

لن تنتصري على الموت ما دمت تخافينه ..

كان واثقاً من أن تعليله هذا هو الحقيقة ، ولم يكن مخطئاً . ورأيت بعينيه ساعة غادرت البيت نظرة مفجعة الحزن والحنان .

هذه النظرة بالذات تخيفني وتملأني باحساس غربة سحيقة .. تذكرني أن كل إنسان يولد وحيداً ويصلب وحيداً وعليه أن ينتصر على الموت وحيداً أيضاً ..

ألتفت إلى هيثم . ما زال يقود سيارته بجنون . أحبه ، لكن يخيل إليّ انني لو مددت يدي لأتحقق من وجوده ، لاخترقت أصابعي جسده كأنه حلم زنبقة ذابلة .. لو حاولت الإمساك به لاستحال في قبضتي إلى حفنة من دخان ، ولظللت أواجه قدري وحيدة .. كأنه ليس هنا أمامي يقودني إلى الشاطىء الأسود ليمنحني الخلود .. كأنه هو أيضاً مصلوب فوق عمود من أعمدة كهرباء المدينة ..

اهرب من خواطري ، أدير رأسي نحو النافذة . القمر يتدحرج عند حافة الجبل البعيد . حيويته في ملاحقتي تثير حماستي .. الجبل يعلو . يلتحف غابات سوداء تتكاثف ، أنين العجلات كئيب . القمر يهوي في الغابة . يتمزق بين أغصانها . السيارة ما زالت تركض والقمر رغم تمزقه ينطلق

في الغابة . الجبل يسقط . القمر يعلو منتصراً . تتجمع أشتاته في ثانية . يجمد في أوقيانوسات السماء . السيارة ما زالت تطير . لن أموت . رأسي ثقيل يسقط على المقعد . أصابع هيثم تتسلل من خلف المقعد وتغزو الخصل المتدلية .

رغبة بدائية بالبكاء تغمرني . أنا وحيدة وخائفة . أقترب منه وألتصق به . صوته يتحسسني عميقاً مثيراً وهو يسأل : « ما الذي يخيفك ؟ » أسمعها تجيب : « لا شيء » . أكره أن يموت الناس أمامي ، لأنهم يقنعوني بأنني سأموت فعلاً » . وكأسد لا يدري كيف استطعت ترويضه يتوسل قائلاً : « للمرة السابعة أرجو أن تقبلي بي زوجاً .. سوف أسعدك وستتخلصين من هواجسك كلها » .

هواجس ؟ .. من يدري .. كلماته تلسعني . لن أتزوجه . لا أستطيع . يجب ألا يكتشف الحقيقة .. أتماسك أمام توسل البنفسج العطش في عينيه : ألم نصل بعد يا هيثم ؟ »

لا يجيب . مقدمة السيارة تجيب . تتجه نحو طريق فرعية ضيقة ، عمودية على الشاطىء . عبق الماء المالح يوقظ شرهي إلى الحياة ، أحب البحر . أعتقد ان مدن الأعماق سعيدة لأن أسماكها خالدة لا يمكن أن تمرض أو تموت بلا سبب مثلنا ، ولأنه ليس فيها أعمدة كهرباء .. أما نحن فنمرض ونتعذب ونصلب على أعمدة الكهرباء دون ذنب ..

السيارة ما زالت تتقدم . نصعد تلاً رملياً صغيراً . نهبط فجأة ، وفجأة يبزغ الخليج الأسود .. كذكرى شاحبة لأول حب ينبسط تحت أقدامنا بوداعة . يمنح نفسه لأنظارنا بسخاء . وأراه ، مدهش الاستدارة عجيباً جذاباً كأسطورة .. وأراه ، يبدأ من نجوم صَيفية ، ما زلنا نقترب من الماء . ضوء القمر يتلألأ فوق رماله الرمادية . شاطىء أصداف تفتحت لشذى زهر الليمون الدافىء وسكبت لآلئها . الأمواج تلعق النور عن الشاطىء بخفة عرائس البحر .. يا مدينتي التي تهترىء في الليل ، في الشاطىء البكر هنا تبعث

أمجاد الصحو والصيف والقمر .. أحس برغبة حارة في أن أمتلك هذا العالم المدهش الذي يقع تحت حواسي . عاصفة النشوة أقسى من أن تحتملها سهول الخيزران في نفسي ... هنا ، في مهرجان الليل سيمنحني الخلود . سيسكبني لؤلؤة في حضن محارة ويودعني موجة من موجات الأعماق ..

– قف يا هيثم ودعنا نمش قليلاً ..

صوته رنين مرساة ذهبية في شطآن منبوذة ، يقول : « لا أستطيع الوقوف هنا ، إنني بحاجة إلى أن تكون السيارة قريبة مني .. سأصل بمدخرتها سلكاً ومصباحاً صغيراً . هل تريدين أن أمزج الألوان في الظلام ؟ » .

لا أجيب. يتقدم بالسيارة . نحن على بُعد أمتار قليلة من الماء . يتوقف. اقفز . اخلع حذائي المهذب . ادفن قدمي في بداءة الرمل . أقفز وأدور وأرقص وأرحب بالآله في كل شيء . أسقط على ركبتي وأنا ألهث . تعبت من صلاة النشوة . أطمر نفسي بالرمل الحي . الموت هنا يبدو مغرياً . لن أصلب على عمود كهرباء في الشارع . لن تأتي السيارة التي تنوح وهي تلملم الموتى من الأزقة لتشحنني .. سأظل روحاً شابة تهوم في الشاطىء الأسود ، تحرسه ، تمتزج معأنسام نيسان وشذى زهر الليمون ..

هيثم يرتب أشياءه وفرشاته وألوانه . مصباح باهت يضيء قرب اللوحة المعدة بعد أن وصل سلكه بمدخرة سيارته . يجهز بعض الاسطوانات ، يعمل بخفة أسد يصنع وليمة للخلود . لحن غجري حالم يغمر سحر المكان كسحابة ضباب ملونة .. يقترب مني .. عيناه تمطرانني شهباً . فراشات مرحات تتطاير في مسكبة البنفسج . يقول لي : « تمددي فوق الرمال السود ، يجب أن أنتهي من اللوحة قبل مطلع الفجر ... أقسم إني سأصنع لك الخلود الليلة »

لا أجيب . ليته يجلس بجانبي . أحدثه طويلاً عن الحقيقة . ليتنا نصنع الحياة قبل أن نصنع الخلود .. يخيل إليّ ان الخلود يمكن أن يتفجر بعفوية من

لحظة حماسة حقيقية للحياة .. لكنني أجبن من أن أواجه حقيقتي .

هيثم يبدو منغمساً في عمله . يهتف بي : « دعي ثوبك يسقط على كتفك اليمنى . ويكشف عن جزء من صدرك » .

ذعرٌ حقيقي يسوطني . سيكتشف الحقيقة . لا أستطيع ، لا أتحرك .

يعاتبني : ألا تثقين بي ؟ أم انه عنادك ؟

من قال إني لا أثق به ؟

أكشف عن كتفي اليسرى وجزء من صدري ..

يصرخ غاضباً : « قلت لك اليمنى » .

لا أتحرك . يتجاهل عصياني أنا المتمردة قبل أن يخلقني . يستمر في الرسم ، شيء ما في سحر الشاطىء يسخر منا . يهتف بنا أن نصنع الحياة قبل أن نفكر في الخلود . يقول إننا لن نخاف الموت إذا عشنا لحظة حقيقية واحدة . الذين لم يعيشوا فعلاً هم وحدهم الذين يخافون الموت .. وهم الذين يفشلون في أن يصنعوا الخلود . وأنا محرومة من أن أحيا . قريباً يختطفني موكب الخريف دون أن يزهر في جدبي ربيع .. دون أن أرسم اللوحة التي طالما حلمت بخلقها وحدثت أبي عنها .

هيثم ما زال غارقاً بين خشبته ومصباحه وألوانه . رائحة زهر الليمون واللحن الغجري يملآنني حياة ودفئاً وأملاً .. ذات يوم سأرسم اللوحة . سأحس انها نبتت من الأرض فعلاً ، وإن لها جذوراً تنغرس في الشمس وفي الصخر وفي العاصفة وجذوراً تلبلب بين أهدابي وأعصابي وانها عالم حي يمزج وجودي الصغير بالوجود الأكبر ... وانني يوم أرسمها سأظل فتاة صغيرة لا تهرم ولا تموت ولا تمرض كالأسماك . يوقظني صوته قائلاً : « أغمضي عينيك » .

— لماذا ؟ ..

— أيتها العنيدة . أغمضي عينيك .. أريد أن أرسم الوداعة والطمأنينة

في وجهك ..

ــ أخاف أن أغمض عيني .

يصرخ ثائراً : « قلت لك أغمضيها .. عنادك عجيب ! »

لا مفر. أغمضيها . الشاطىء يذبل . النجوم تنطفىء . اللحن الغجري يغرق في كهوف سحيقة . رائحة الليمون مشحونة برطوبة الفناء . هدير الأمواج يعلو . موجات سود حاقدة تهاجمني . تحتلني . تحملني إلى ليل المدينة المهترىء . الشارع أمام دارنا مهزوز زائغ ينتحب البوم في كواته .. أعمدة الكهرباء وحدها تبدو صلبة حقيقية ، صامدة كأعواد مشانق عطشى لشهقات الذعر .. هنالك عمود ما أقيم لأجلي . أرفض أن أتحرك . أنا على الشرفة . الموجات السود تلطمني . الرجل المجهول يسير في الشارع . يقف أمامي على الرصيف يناديني . يقول وبين شفتيه ضحكة شيطانية انه سيصلح كهرباء دارنا . ينتعل قطعتين من الحديد . يتسلق العمود . رأسه يفقد مظهره الإنساني ويستحيل إلى رأس فأر . يتسلق العمود : إبقَ إنساناً ، لسنا بحاجة إلى الكهرباء ... لا يسمع . يصل إلى الأعلى .

يعبث بعدد من الأسلاك . شهقة مخيفة . يهوي إلى الرصيف كتلة من فحم وذعر واستسلام . يستعيد رأسه الإنساني . عيناه فجوتان ينسكب دم مظلم منهما . تهمهم أصوات غامضة بأنه مات .

السيارة التي تنوح وهي تلملم الموتى من الأزقة تحمله وتمضي .. يولد من جديد على الرصيف . أريد أن أصرخ . أن أحذره . لا أستطيع . يتقدم . يصعد من جديد . يصعقه التيار . يهوي . تنوح السيارة . يولد من جديد . يتسلق العمود . يهوي . يصنع العدم أمامي عشرات المرات وأنا لا أستطيع أن أصرخ . موجة خفية تشدني عن الشرفة تحاول أن تصلبني من كتفي اليمنى وصدري فوق أحد الأعمدة . وأعول فجأة بهلع حقيقي بدائي : « لا أريد أن أموت .. لا أريد » .

ذراعان تحيطان بي . تهزانني . هيثم أمامي يمسح دموعي ويهدئني . ما زلت على الشاطىء الأسود . القمر والصيف وأنفاس زهر الليمون . من قال إني كنت أصرخ ؟ .. لم يحدث شيء . أبي كان على حق حينما ذكرني بالعامل الذي صعقه التيار فمات أمام شرفتي . هيثم يشدني إليه وبريق مجنون يلتمع في عينيه :

– لن تموتي .. لقد خلدتك .. زرعتك نجمة في هذا الشاطىء .. تعالي .. أنظري إلى اللوحة ..

أنهض معه . اللوحة أمامي تلتمع مع الفجر الذي بدأ يبعثر خصلاته . أرى فيها غجرية ثرية الشعر بدائية التورد . عيناها مغمضتان باستسلام عجيب . الصحة تتفجر من كتفها اليمنى وطرف نهدها العاري حيث تتركز نظراتي والدم يتوهج في مسامي .. وأصرخ فيه :

– لماذا عرّيت كتفها وصدرها ؟ .. لقد رفضت أنا ذلك ..

يجيب مفتخراً : « رسمت الأشياء كما أتصورها .. وقد يكون الواقع أكثر جمالاً . أعتذر » .

وأعود أتأملها . أتأمل وجهها الساذج الوديع . هذه هي الفتاة التي يحبها .. رسمها دون أن ينظر إلى وجهي بينما كنت وحيدة أصلّب على أحد أعمدة المدينة كما صلب التيار صباحاً ذلك العامل المسكين . هذه غريمتي . أتمنى أن أغرس الدبابيس في كتفها العارية وصدرها المتفجر صحة . لو يعرف ...

أحس بحاجة لأن أعترف له بالحقيقة . أتوسل إليه بأن يحطمها هي ويحبني أنا . سأفقده إذا أخبرته . سأظل صامتة ، وقريباً ينتهي كل شيء . الفجر يكاد يطلع . يجب أن نهرب من هذا المكان . لقد منحها الخلود ولم يمنحني إياه . يجب أن نهرب . أخاف من الوقوف أمامه في فجر هذا الشاطىء ، حينما يكون كل شيء ناصعاً وحقيقياً إلا أنا .. إلا أنا أخدعه بالثوب الملون والشعر المتمرد وأطواق الغجرية .. دعنا نعود يا هيثم . جمودي أمام لوحته

لا يهمه . يبدو واثقاً بها وفخوراً . ليتني أحطمها . يلملم أشياءه بسرعة . نعود إلى السيارة . يدير محركها وأنا أهتف : « أتوسل إليك أن تسرع ! دعنا ننسحب قبل أن يطلع الضياء . »

لهفتي تدهشه لكنه يطيع . لا يرفض لي طلباً . السيارة تزمجر ولا تتحرك . أقفز منها وأرى أن عجلاتها قد غاصت في الرمل حتى نصفها . أتوسل إليه أن يحاول من جديد . أستميت في دفعها من مؤخرتها . العجلات تدور في مكانها وسحب كثيفة من الرمل تتناثر حولها .. السيارة تزداد غوصاً في الرمل . النور بدأ ينسكب من مكان ما . هيثم يقول انه من المستحيل أن تتحرك السيارة . من أية فجوة ينسكب النور لأسدها بجسدي . يخيل إلي انه يولد من كل ذرة رمل . من الأفق .. من انتفاضات الأمواج .. من صفاء الزبد .. من كل شيء إلا من صدري .. الفجر يولد ندياً بكراً وحشي الصفاء . هيثم يقترب .. يجب ألا يراني في النور هنا ، حيث يغتسل كل شيء بالفجر وينفتح للنور بلا خوف .. إلا أنا

.. يجب أن أهرب .. الضياء يتفجر من كل مكان حولي .. ينجدل في هالات .. يدنو . يغمرني .. يجب أن أهرب .. هيثم ينظر إلى رعبي متسائلاً .. إنه طيب وصادق ومخلص ، يحبها كثيراً حسناء اللوحة .. يظنني هي .. لن أدعه يكتشف الحقيقة ، أنطلق فجأة هاربة من الشمس .. أعدو ، عنادي وذعري نيران تلهب موطىء أقدامي . أنتزعها بصعوبة من الرمل الهش وأظل أعدو .. وقع أقدام هيثم ورائي . متعبة . لن أستسلم . يد ثقيلة على كتفي .. تمسك بثوبي . أحاول انتزاعه منها وأظل أعدو . الثوب يتمزق . ينكشف عن كتفي اليمنى وصدري .

اليد الثقيلة تسمرني — وعينا هيثم تتأملان ما انكشف عنه الثوب .

غابات من ذعر واشمئزاز وبؤس تغطي مسكبة البنفسج . أقف أمامه كأن الأمر لا يعنيني بينما هو يتأمل آثار اللحم الممزق في كتفي وصدري .

يظل يتأملني بوجه جمّدت الصدمة ملامحه .

لا أشعر بخجل لقبح المنظر . أهتف به.« قل أي شيء.. قل انني خدعتك .. قل إن آثار السرطان في صدري تخيفك .. قل إن التشويه الذي أحدثته العملية في صدري يخمش البنفسج المدلل في عينيك .... قل انك تحبها ، حسناء اللوحة ، لا أنا ... انني سعيدة لأنك عرفت » ...

لا يجيب . يظل يحدق ذاهلاً . الوجود يبسط نفسه أمامي بعري صادق ، وأنا أقف أمامه ببشاعة لكنها حقيقية . الآن أستطيع أن أنضم إلى الأشياء أحرقها بآلامي وتحرقني بصمودها لننصهر ونصبح كلاً واحداً يتصعد من فحم إلى ماس . .

الآن أفهم ما كان يقوله أبي عن الشجاعة والإخلاص في مواجهة الموت والوجود ..

سأرسم اللوحة .. لم يعد بيننا حجاب ..

هيثم ما زال جامداً . يده تتحرك بحنان عجيب لتستر كتفي ببقايا الثوب .

لست بحاجة إلى شفقة إنسان .. أحس اني قوية ومحبوبة كما لم أكن قط من قبل . الوجود الذي كان قد نفاني يحتضنني . الفجر ينعشني . يسكب في تشويه صدري بركته وسطوعه . لم أعد مهجورة . هيثم يتأمل وجهي والعرق البارد يتصبب منه . يداه تحيطان بوجهي بحنان حقيقي . تكادان تخيفانه . لن يعيدني طفلة متعبة ضالة . لقد فقد تأثيره عليّ .. أحس انني أتجاوزه وأتجاوز مراهقتي وأخلفها ورائي في بحر الحب الضيق وما فيه من أنواء سطحية ، وزبد يعمي الأعين ويلهيها عن حقيقة وجودها .. أشعر بأنني في هذه اللحظة أنسلخ كلياً عن وجود تقليدي مبهرج ضيق ، وأرتمي في محيطات شاسعة هادئة الضياء حيث يبدو كل شيء ضخماً وحقيقياً وصامتاً ... اسطورة الحب أتجاوزها إلى آفاق جديدة من الرعب والحقيقة والصفاء والألم .

هيثم أرثي لقوته ..

يحبها كثيراً حسناء اللوحة ...

صوته الممزق يقول : « هل رفضت الزواج بي لهذا السبب ؟ »

أجيب : « ألا يكفي ؟ قال الطبيب الذي استأصله انه من المحتمل أن يعاودني المرض في أية لحظة » ...

– لهذا كنت تبحثين عن الخلود ؟ .

– لا أدري .. لم أعد أخشى الموت وما زلت أرغب في الخلود .. وأنت قد فشلت في منحي إياه .. انك تحبها هي .. لا تنكر ..

– إنني مخلص لنفسي .. سنتزوج ..

تصفعني كلماته ..

– سيدي .. إن كنت تصر على الاستمرار في أسطورة الحب فأنا أكره الصدقات ..

لا يجيب .. يعدو نحو السيارة : ينتزع اللوحة .. يحطمها على الصخر بجنون .. في حركاته بكاء حاد مكتوم.الأمواج تزحف لتلتهم البقايا .. ألحق به بعد فوات الأوان .

أسأله : « لماذا حطمتها ؟ »

– لا يمكن أن نمنح الخلود لشيء غير موجود ...

– كانت المدينة ستصفق لها طويلاً ...

– لن أزيّف بعد اليوم لتصفيق المدينة .

أرفع عيني إليه وأتأمله . ملامحه تشف كما لم تشف الأشياء من قبل ، عيناه سماء من فهم ومشاركة واستجابة عميقة .. عميقة . شبه استعطاف ورجاء في وجهه يسحرني .

يسير ...

– إلى أين يا هيثم ؟

– سنسير حتى الطريق العام كي نجد من ينقلنا إلى المدينة ..

أنتزع خطواتي وألحق به ..

يحدثني كأنه يخاطب نفسه .

– لقد تجاوزت أراضي الحب الرخوة ، وبدأت تزحفين في الأرض البوار .. وبدأت تمسكين بأحجار النار لمجرد انها صلبة وحقيقية .. سترسمين اللوحة .. انني أحسدك .

أسير إلى جانبه . صدري المشوه متكبر يعانق الضياء . الشمس تكاد تطلع . لم تعد تخيفني . أنفاس زهر الليمون تفور من الأفق . لقد استهلكنا أقنعة الحب ، واليوم نواجه قدرنا عاريين إلا من حقيقتنا . اسمعه يحدثني بحزن مصيري خاشع :

– إنني أحترم عنادك وكفاحك .. أيتها الإنسانة ، هل تقبلين صداقتي ؟ ..

بعد عشرات من حكايات الحب المراهقة .. بعد انهدام آكام من الأوهام الفضية ... بعد سلخ أردية التحذلق والعادات والأماني الاجتماعية .. بعد عذاب وخوف من كل شيء ... يتقدم إنسان ليطلب الصداقة ... صداقة الوعي بحربنا اليائسة مع القدر .

وصيحتنا الممزقة رغم كل شيء . نتحداك .. لن نموت ..

يده تضم يدي في صداقة الند للند .. أقدامنا ترسم على الرمال خطين متوازيين متعرجين .. أنا متعبة . لم أعد أقوى على السير .. ألم حادّ يمزقني . لن أموت ، حتى أرسم اللوحة ...

أوهام الحب والغيرة والجمال لم تعد تقف بيني وبين الأشياء .. حسبي انني إنسانة ، بشعة ، لكنها حقيقية ، لأنصهر بالأشياء في صدق وإخلاص.

أبي قال أن لا أحد يصنع للآخرين خلودهم ، وسأصنع خلودي بنفسي ... وسأرسم لنفسي لوحتي الحقيقية وسأكون مخلصة لبشاعتها ..

الموت ؟ ...

من قال إني سأموت قبل أن أنسكب في لوحة أستمرّ فيها ؟ ..

من قال إني سأموت ؟ ..

القطة

جرس الهاتف يرن .

ملحاح وأبله هو صوته ، كذبابة جائعة . لا ريب في ان أمها تحدث الجارة من النافذة كعادتها . ستجيب . تسرع . تختطف السماعة كي يخرس الجهاز ثم ترفعها ببلادة . تغوص في شجرها الغجري المبعثر ..

ــ من ؟ .. أستاذ سليم .. أهلاً .. ظننتك في بيروت .

ــ وصلت منذ لحظات متعباً ووجدت برقية من الأستاذ نادر يقول لي فيها انه سيصل الليلة في الثامنة والنصف ، ورجا فيها أن ترافقيني إلى المطار . يبدو ان إحدى نوبات العمل قد انتابته .. وليرحمنا الله !

صوته مختلط بضجيج أبواق السيارات والمارة . لا ريب في انه يحدثها من الدكان المجاور لداره . اسم نادر سمعته جيداً . تقبض على السماعة بشراسة عنكبوت يتخبط في الفراغ ولا يشده إلى ركنه في السقف سوى خيط رفيع يغوص في فكوكه ..

ــ لم أسمع جيداً .. ماذا قلت عن الأستاذ نادر ؟

ــ قلت انه سيعود بطائرة الثامنة والنصف . سآتي إليك بعد ثلاثة أرباع الساعة لنذهب فنستقبلها معاً ..

هل قال « نستقبلها ؟ » ولكن نادر رحل وحده .. إنه ضجيج الشارع بلا ريب ..

إنقضى الشهر وهي حائرة ، هل تذهب لاستقباله ؟ هل تكون له ،

أبداً له ؟ ... أم تظل قطتّه التي تحبره ؟ أم تخبره ، بأنها يوم تحررت من أسعد أقسمت ألا تكشف أعماقها لرجل .. يجب أن تقرر بسرعة .. الآن .. نظراتها تتجه نحو غرفتها حائرة مستنجدة ، تود لو تخترق الجدار لتقع على صورة كبيرة لاسعد علقتها مقابل فراشها .. الصورة كريهة ونتنة وإطارها خشبي كالتابوت . لا . لن تكون لأحد بعد اليوم ..

— لن أذهب معك يا سليم ..

الضجيج ما زال يتدفق من السماعة ويغمر الغرفة .. لماذا لا تلقي بها وتستريح ؟

— ماذا تقولين ؟

— قلت انني لن أذهب معك لاستقباله ..

— لا أستطيع أن أسمعك .. سأمرّ عليك في الثامنة . كوني مستعدة . اسرعي ..

— ولكن ..

تسمع صوت السماعة وهو يعيدها إلى مكانها . الضجيج في الغرفة يضمحل فجأة . ومضة فرح خبيثة تسطع في عينيها . انها مضطرة للذهاب ، لا تريد أن تبدو قليلة الأدب أمام سليم المسؤول الثاني في الشركة بعد نادر .. تعتذر من لسعة مبهمة بدأت تؤرق كيانها كله .. ذهابي لا يعني شيئاً . أستطيع أن أرفضه فيما بعد .. ثم انني سكرتيرته وقد تكون بجعبته أعمال هامة فعلاً تستدعي وجودي السريع . سأذهب ... باب يصفق وراءها . تكتشف انها ما زالت تحمل السماعة الخرساء في يدها .. تعيدها إلى مكانها وتلتفت . لماذا تلوّن أمها خديها بهذا الأسلوب ؟ فمها واسع جداً .. يخيل إليها انه يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم . أبداً تسألها :

— لماذا تعلقين صورة أسعد في غرفتك ما دمت قد أصررت على فسخ خطبتكما وانتهى كل شيء منذ أكثر من عام ؟ هل أنت مجنونة ؟

كيف تركت أسعد الثري بسبب هفوة تُغتفر لأي رجل ؟ على الأخص إذا كان هذا الرجل ثرياً ..

تخاطب أمها :

– إتصل بي سليم وقال إن الأستاذ نادر سيعود الليلة أنا ذاهبة مع سائر موظفي الشركة لاستقباله .

انها تكذب . يؤسفها أن تضطر للكذب كلما خاطبت أمها . تريد أن تتحاشى أية مناقشة معها . ترى جيداً انها تفتح فمها وتغلقه كأنها تتحدث ، رسوم الستائر وراءها غريبة الألوان . أساورها الذهبية تلتمع بابتذال ، تذكرها بأشياء قذرة . بأسعد . بالثمن الذي اختبأ وراءه ليشتري كبرياءها . كلهم يدفع من محفظته وتزلفه ..لا أحد يمنح من نفسه . تنسحب إلى غرفتها . تغلق الباب. الغرفة مظلمة . هدوء لزج بليد يزحف كأفعى ويلف الظلمة بغلالة من وحشة وذعر . الشتاء غراب أسود مكوم تحت أقدامها ينقرها. حزمة من نور الشارع تنسكب من النافذة المفتوحة فوق باب شرفتها المغلق ، وتتراقص بشراهة شيطانية على صورة أسعد . لقد تعودت أن تدمغ بها هذه البقعة من الجدار بالذات كيلا ترى سواها عندما تستلقي في فراشها .. لتظل أبداً أمامهـــا كذكراه : كبيرة وكئيبة .. باهتة كشبح ، لكنها موجودة .. كحقيقة ممزقة مرعبة ترفض تصديقها .. شفتاه في نصف انفتاحة .. في نشوة وذعر .. تماماً كيوم فاجأته بزيارتها في داره .. صرامته .. لامبالاته .. كبرياؤه .. ماذا حدث ؟ القيم كلها تتطاير مع فقاعات صابون حمام معطر .. لماذا أعطاها مفتاح داره إذا كان يعرف انه سيخونها ؟ لماذا لم يستعده أثناء مرضها ما دامت حسناء سواها ستعبث بتحفه ورياشه ؟ ليتني لم أمرض .. بل ليتني لم أشف أبداً .. جاءت لتفاجئه بأنها تحسنت . تحدت أوامر الطبيب . الوهم الأخاذ تمزق مع أشياء كثيرة لا تدري ما هي . رائحة عطر رخيص ظلت تعشش في حنايا منخريها منذ ذلك اليوم .. الزلزال لم يتوقف .. زلزال

في الدرج حيث انطلقت راكضة هاربة من الاله الذي يتمرغ في مستنقعات الكحل والعطر الرخيص .. زلزال في أرض الشارع حيث ظلت تركض . لا تشعر بأن الناس كانوا يرمقونها بدهشة .. الناس ؟

أحقاً ان في الكون إنساناً سواي ؟ لماذا لا أسمع حفيف أنفاس أحد ؟ التماثيل الرخامية تتنفس ولا تلهث ؟ زلزال في مدينة قيم منسجمة عربيدة الألوان .. المدينة بعد الزلزال حزينة ومهدمة تتكيء أطلالها على اطلالها ..

تظل متصلبة في الظلمة .. خوفها من شيء ما يشد نظراتها إلى صورة أسعد . لماذا خانها ؟ منحته اشراقة أعماقها .. لماذا علمونا ألا نسجد إلا لمثل أعلى تُنحت تماثيله في غيبوبات مراهقة ؟ لتبقَ الصورة هنا لئلا أسجد بعد اليوم لغير الحقيقة . سأعرّي بقسوتي الرجال جميعاً من زيفهم .. سأرفض كل شيء .. ليس في الحياة تحدّ يستحق رد فعل صادق ..

تظل تخمش الصورة بنظراتها . تكرهها .. وتكره أن تنسى .. لا لن تذهب لاستقبال نادر .. قال لها قبل رحيله :

— أيتها القطة ، فكري طوال الشهر الذي أقضيه بعيداً .. إذا قررت أن تكوني لي زوجة فتعالي إلى المطار لاستقبالي . وإلا فلا تجيئي ..

لن تذهب .. ستترك عملها في الشركة . ستهجره لأنها تعبده . لن يفهم شيئاً . ستظل أبداً قطة المدينة . لن تتعرى أعماقها أمام أحد .. لن تستسلم . الحب سلاح في يد الذين تحبهم يعطيهم القدرة على أن يجرحوها ويخذلوها .. وهي لم تعد تريد أن تخذل ، لا أحد يستحق أن تسمح له بجرحها . ياالله ! كيف تنسلّ نظرات أسعد التي لا لون لها من الصورة العجيبة . فتتحسسها مفجعة الرخاوة والبرود .. كم تكرهه ! وكم تكره أولئك الذين يحملون جوعهم في أعينهم ويلتفون حولها ! تنشر شعرها الغجري مع ضحكها وتخابثها اللذيذ . عالم مثير الألوان والأضواء يشدّهم إليها أكثر .. يلذ لها أن ترقب عذابهم المراهق .. عواء جوعهم وحقارة جوعهم وعري جوعهم

أمام برودها .. ملكة النحل تقتل ذكورها .. النحلة عاقلة ..

لو يعرفون .. لو يعرفون تشردها في الشوارع المظلمة . تدفن فيها هويتها .. تتأمل النوافذ واحدة واحدة . تبكي عندما تلمح ظلال نار يحتضنها موقد دافىء .. تود أن تحصبها بالحصى بحرقة طفل يحطم دميته التي طالما توسل إليها أن تنطق . فظلت تواجهه بعينين تطل منهما كآبة باردة لامبالية .

الحب والكراهية يمتزجان في قلبها .. كالموت والحياة .. لماذا لا تستوي الأشياء ؟ انها قوية .. قوية بقسوتها .. قوية بعذابها ..

قطة ما تموء في الشارع بأسلوب إنساني بدائي .. تنفجر باكية بحرقة حقيقية عجيبة بينما هي تردد : أنا قوية قوية ..

تهوي إلى فراشها .. عالم متفجر الذرات في أعماقها .. الرعب . التحدي . الرفض . تحس ان في أعماق رفضها كذباً مكابراً . لم تستطع إلا أن تكون مزيفة عندما تتعامل مع الآخرين . تمرغ وجهها في لزوجة الدمع الحار ثم تستلقي على ظهرها وتظل نظراتها مشدودة إلى صورة أسعد . انها مشوقة لرؤية نادر . لماذا لا تغامر ؟ صورة أسعد تكبر . تغطي الجدار .. ينزلق منها شمعي الوجه طرياً كأكذوبة .. ينحني عليها ببلادة كساعة حاول استرضاءها بذهبه .. من قال انها أحبت ذهبه ؟ .. يطل على عوالم رعبها وهو يقترب .. شفتان ميتتان تلصقان بشفتيها . الدود لزج كريه الرائحة .. مرارة الغثيان تنفجر في جسدها .. تكرهه .. تكرههم جميعاً .. تختنق .. ذات ليلة ستموت هكذا كصرصور في بئر الصديد .. لن يحس بها أحد . قد لا تموت ولكن جسدها في لحظة صدق وقرف من الحياة سيرفض كل شيء .. فمها سيرفض أن يشكو .. لسانها سيرفض أن يتكلم .. سيظنون انها ميتة ، أمها تبكي وتندب والجارة الثرثارة ستجد الدليل على انها كانت مجنونة فعلاً .. سيرمون بها في قبر مفتوح .. النجوم في السماء ستظل تغمرها ببلادة لامبالية كعيني قطة تثرثر عند الموقد . الليل سيحنو على رفضها..

سيشفق عليها لأنها لا تستطيع أن تبكي .. وقبل أن تندّي الريح وجهها سيهيلون التّراب عليها، كثيراً من التّراب الرطب. كثيراً من التّراب فوق صدرها .. متعبة .. متعبة .. تكاد تختنق .. لماذا نسوا الصورة معها في القبر ؟ .. أسعد يقهقه مع الغانية .. تفور قذارة فقاعات صابون حمام معطر في ثنيات القبر ..

أسعد ينثني إليها ليضمها .. لماذا يكون الموت بهذه القذارة ؟ ألأن الكراهية والسلبية تملآن نفسها ؟ تقفز فجأة عن فراشها والذعر والاشمئزاز شحنات كريهة تومض من جسدها .. زر النور إلى اليمين .. الظلمة تجلب هذه الرؤى .. سئمت عذاباتها .. كل شيء يتوهج ويحرق أهدابها .. صورة أسعد ما زالت في مكانها .. المكتبة مصلوبة تحتها .. المجلات الملونة مكدسة ، رثّة الأطراف ، كأنها فريق راقصات رخيص .. المرآة فاجرة النظرات تواجهها بصفاء مرهق .. ترى فيها عينين دامعتين . كم هو مريح أن تستعيد قدرتها على البكاء وترى شعراً غجرياً بجنون التمرد ! تهز رأسها فيزداد انسكابه كشلال متفجر الضياء .. انها مغرية محرقة كشمس مدارية صاعقة .. القطة .. لذيذ ان ترى في العيون حقداً لا شفقة .. كم كرهت شفقة الجارات بعد فقدها أسعد .. خطيبها !

تتحسس نعومة رقبتها وصدرها بنشوة نرجسية فخور .. كم هو لذيذ أن تكون جميلة ..

احساسها بالجمال يملأها برغبة في أن تمنح كي تعرف نشوة التلاشي.. ان تمنح يعني انها حية . الوردة الذابلة في الكأس بالقرب منها فاتنة الشحوب ومؤثرة .. رأسها المحني يبعث على الاحترام ... يذكرها باشراقة التعب التي يشع بها وجه المرأة بعد الوضع ، جميل أن يشرق الإنسان بعد أن يموت ، النجوم كلها ، أتراها نساء عرفن نشوة العطاء والتلاشي واستحلن. أبخرة تكاثفت في مغاور السماء وظلت أبداً مضيئة رجراجة ؟

نادر .. تحبه .. تريد أن تمنح وأن تغامر من جديد .. تريد أن تنظر إلى النجوم .. في رعشة أشعتها وعد لرعبها بميتة مشرقة . تفتح باب شرفتها وتخرج إليها .. غيوم الشتاء تتغذى بالنجوم وتخرج إليها بالنجوم ، لكن النساء المضيئات بالسعادة كثيرات .. أبداً تتجدد بهن النجوم .. وهي ستنتقي مغارة فيروزية في ركن السماء قرب نافذة نادر لتظل أبداً تمنح ..

تعود إلى غرفتها وقد توردت وجنتاها . يخيل إليها ان صورة أسعد ساخرة لا تبالي ، ترتدي ثيابها . أنفاسها تتسارع مغناجاً نشوى وهي تستعيد بكثير من اللذة أشياءها الصغيرة . الاسطوانة النائمة في ركن دولابها والتي أهداها إياها ذات مرة وهو يقول بلهجة ذات معنى :

— اسم هذه الاسطوانة : تعالي اليوم أو لا تجيئي أبداً .

تبتسم بتخابث وهي تذكر كيف ردّت عليه :

— أستطيع أن أجعله يردد ذلك كل يوم .. كلما اردت .. يكفي أن أضع ربع ليرة في ثقب آلة الاسطوانات وأديرها .. ربع ليرة تشتري حبيباً في مدينتنا ..

تنتهي من ارتداء ثوبها .. بعد لحظات يأتي سليم ، يجب أن تسرع .. كم هي بشوق لرؤية نادر .. السد قد تهدم .. المياه تهدر وتكتسح كل شيء ... أناملها وأهدابها ومسامها ونزق حركاتها تصرخ بأنها له .. آلامها وتحديها ورفضها وماضيها تنصهر في صرخة متوحدة محمومة فيها الكثير من بدائية صرخات الغابة .. تحبه .. ستكون له وحده .. أبداً كانت تبحث عن حضارة . عن دفء معتق قديم .. اصرارها على البحث هو الذي دمغها بأصباغ العبث ، ستسلم مغاورها وشطآنها وجزرها المرجانية لغيمات حارة وردية تسكبها لمسات رؤوس أصابعه وشفتيه ...انها هاربة من قبر كراهية وحقد إلى حيث تولد نجمة ..

لماذا لم يصل سليم بعد ؟ نسيت أن تصفف شعرها .. نادر كان يكره

خصلها المغناج ، وتهتكها المثير على الجبين .. يحيلها إلى قطة .. لا أحد يملك قطط المدينة .. وهو يكره مدنية القطط المزيفة . قال انه يبحث عن حضارة .. تتناول شريطاً أسود وتشد شعرها إلى الوراء .. لماذا تأخر سليم ؟ انها الثامنة .. لا تريد أن يجد نادر نفسه وحيداً في المطار .

كأحلى سيمفونية عرفها ليل المدينة تسمع هديل بوق سيارة سليم ، تقفز على السلم راكضة كأنما تلسع درجاته قدميها . ترتمي في السيارة إلى جانب سليم وهي تلهث فرحة . يحييها ويتأملها بينما هو يدير المحرك .. للمرة الأولى يراها بلا كحل . بلا ألوان ، بلا اثارة مفتعلة . امرأة من صلب الحقيقة وصفاء الخيال . يدهشه منظرها .. تقول له بلهفة :

– اسرع يا سليم ، لا أريد أن يجد الأستاذ نادر نفسه وحيداً في المطار ..

سليم يضحك ويقول : « انه لن يكون وحيداً .. ستكون معه عروسه الأجنبية .. لقد تزوج هناك .. ألم تسمعي بذلك ؟ »

– من قال هذا ؟ ..

– وصلتني منه رسالة قبل سفري إلى بيروت يخبرني فيها بذلك ويطلب مني كتمان النبأ لأنه يريد أن يحتفظ به كمفاجأة .. لكن الخبر منتشر في المدينة في شبه اشاعة .

– لم أسمع بذلك إلا منك ..

– إذاً فأنت آخر من يعلم ..

تجمد . نادر لن يعود . أبداً لن يعود . لقد مات . ستشتري لقبره باقة ورد . يريد أن يتشفى منها . يريد أن يرى وجهها وهي تفاجأ بعروسه .. كل منهم على استعداد لأن يدفع غالياً ثمن دمعة في عيني القطة يتشفى بها . دمعة واحدة .. وهي لن تبكي . تحول نظراتها إلى الشارع المضيء الذي يخترقانه . الأشياء تنزلق في عينيها بسرعة . بائع أحذية . عجوز يبصق . بائع ورد . تهتف بدلال :

ـ قف يا سليم .. أريد أن أشتري باقة ورد أقدمها لعروس المدير . انك عديم اللياقة .

يقف . يهبط ليبتاع لها باقة . تبقى وحدها في السيارة يخيل إليها انها ترى نادر يهبط من الطائرة وفي طيات معطفه روما تحترق .. كان يبحث عن حضارة ليدمرها .. لم تتعرّ أمامه .. كبرياؤها لم تمس .. أحقاً انها لم تمس ؟ .. زبد في صدرها .. التحدي .. الخيانة .. الكبرياء .. الزيف . نادر غيمة لم تمطر .. من قال انها عطشى ؟ ربع ليرة في ثقب الآلة يشتري حبيباً .. فقاعات صابون حمام معطر تفور في حلقها ..

في صدرها .. تريد أن تشهق.. تشكو .. لمن؟ لا احد .. لا تستطيع .. لا شيء سوى غيمات عطف لا تمطر ..

يدها تمتد إلى الشريط الأسود وتنزعه من شعرها.. قليل من الكحل .. قليل من الألوان .. ياقة ثوبها ضيقة تزعجها . تحلها .. القطة تولد .. ليس في عينيها دمعة ، لكن عيون القطط جميعاً ندية تلتمع في الظلمة ..

سليم يعود ومعه باقة قبيحة لكنها كثيرة الألوان ضخمة الحجم . هذا ما طلبته . السيارة تتحرك . من جديد . القطة تثرثر .. تضحك .. سليم ينظر إليها وظلال حمر تعوي في عينيه ، بينما هما في طريقهما إلى المطار . القطة ترقبه ببرود عنكبوت تحوم ذبابة حول شباكها ..

بعد قليل تهوي الذبابة وتتخبط .. ستضحك كثيراً ..

أضواء المطار تلوح من بعيد .. لا تراها لا ترى سوى صورة أسعد المعلقة في غرفتها ، كريهة ونتنة ، وإطارها خشبي وكئيب كالتابوت ويخيل إليها انها تسمعها تقهقه بسخرية همجية التمزق .. لأن ربع ليرة في ثقب الآلة يشتري حبيباً ...

افعو جريح

ضمّها إلى صدرك أكثر يا زوجي الوفي .. ضمها إليك ، فالموسيقى حارة مغرية وجسدها ناعم الملمس كأفعى الجحيم . وأنا هنا في الركن المعتم زوجتك الباردة التي اعتدت عيونها البلهاء ... واعتاد أصدقاؤك صمتها وسكينتها ... وجلستها الذليلة كقط الموائد .

راقصها بحرارة كما كنت تراقصني أيام خطبتنا منذ خمسة أعوام ... واهمس في أذنيها بعباراتك السخية التي اعتدت تكرارها — دون أن تعي ما تقول — كلما ضممت إلى صدرك غريمة جديدة تعذبني بها ... قل لها « أحب عبير شعرك الأسود ... وأحب عينيك الكستنائيتين » عفواً .. بل قل شعرك الأشقر وعينيك العسليتين .. لا تخطىء (بحكم العادة) وانس أن عشيقتك التي سبقتها كانت سمراء .. يا للضجيج .. يا للموسيقى الصاخبة .. يا لعذابي المريع .. الجميع يرقصون ويقفزون .. وأنا أيضاً كنت أرقص منذ أعوام في حيّنا الفقير .. ويوم عينت مدرّسة للأطفال تجمّع الأهل والأصحاب في فسحة دارنا فرحين مهنئين .. وانفلتّ أنا بين الجمع أرقص بعفوية وصدق .. وأتلوى ببراءة ولذة فطرية .. كنت أحسّ ان الموسيقى تتسلل إلى جسدي وتحركه .. وانني أعبر به عن رغباتي الخرساء .. وما كان أكثرها ، رغباتي الدفينة بسبب خجلي .. لم أجرؤ قط على النظر في عيني شاب حتى حسان .. لم أقل انني أحبه إلا بعد زواجنا ..

يا للقصر المزخرف المزيف كالتابوت المنقوش .. ما الذي رمى بي في هذا المكان المريع ، بين هؤلاء الذين يقفزون ويتصايحون بوحشية في عيد

ميلادي ؟ وهذا الرجل .. زوجي .. لماذا يضم إليه هذه التافهة الملونة .. ويدفن رأسه في شعرها الأشقر .. أشعر بأن الضجيج يمتصني . أضيع فيه وأتلاشى . لم أعد أستطيع السكوت ... انني أصرخ بأعلى صوتي : « أوقفوا هذه الجلبة والفوضى أيها الحمقى .. أخرجوا .. خذوا معكم رجلي المزيف ودميته الجديدة .. انني أكرهكم .. أكرهكم .. لست منكم وليس باستطاعتي أن أكون .. أنا بلهاء فقيرة أريد أن أعود لطلابي الصغار » . انني أصرخ وأصرخ وأكرر .. ولكن أحداً لم يلتفت إليّ . لم يسمعني أحد . فأنا خرساء خرساء كالصخر .. كالدمية .. حبالي الصوتية تالفة مهترئة .. كالأعشاب البحرية .. كالهوام .. وأنا فقدت قدرتي على التعبير بالوسائل المعروفة .. ولكنني – للأسف – لم أفقد بعد القدرة على الألم . إن لي من الآلهة صمتها .. ولكنني لم أكتسب بعد قسوتها وجبروتها ...

ضمّها إلى صدرك أكثر يا سيدي .. فزوجتك اليوم صامتة كالقبر .. لن تضايقك ، حتى ولا بمجرد العتاب .. ليس بمقدورها أن تسألك بعد اليوم لماذا صممت على النوم في غرفة منفصلة عنها بعد الزواج بأسابيع ، ولن تسألك بحرقة كيوم خنتها للمرة الأولى : « لماذا تفعل ذلك يا حبيبي .. لماذا ؟ » ..

وتلك الفاتنة التي اخترتها اليوم لتكون جلادي .. لتراقصها أمامي وتلتصق بها بحرارة مشبوبة ، ليست أجمل مني .. ولكنني بلهاء سيئة التصرف .. وهي تعرف كيف تتثنى بجسدها اللدن وكيف تهمس بدفء مثير .. وتعرف كيف ومتى تعطي .. وتعرف كيف تنتزعك مني لحين .. ربما تنتزعك منها أخرى .. وأنا هنا .. العين البلهاء التي لا ترى ولا تدمع .. وحيدة كالموت .. متعبة كالأنين .. وأعود أصرخ من جديد : « أنا هنا أيها اللاهون .. ألا تسمعون نحيبي الأخرس وصراخي المكتوم .. أنا هنا في الركن المظلم أحس بكم .. وأراكم .. وأتألم بوحشية وجنون .. أنا هنا

ألا تسمعون .. أنا أنثى . ألا تشعرون ؟ » ... لم يسمعني أحد فأنا خرساء .. ولكنني لم أفقد أنوثتي وغيرتي .. لم أفقد هذا كله يوم أصبت بمرض الحبسة منذ عام .. فاسترخت حبالي الصوتية وتقلصت .. وأضحيت كئيبة صامتة كالجثة .. كالحائط .. كأرض الغرفة التي يضربها زوجي الآن برجليه ..

ضمها إلى صدرك أيها الزوج القاسي ... تحسس كتفيها المثيرتين .. انهما ليستا أشد نعومة وامتلاء من كتفي .. ولكنها تعرف كيف تبرز جمالها .. أما أنا المحتفى بعيد ميلادها .. فما زلت هنا في الركن البارد .. ملتفة بشالي الأبيض كالكفن .. شالي الأبيض ، أتذكره ؟؟ هدية خطبتنا .. يوم حلفت لي على الوفاء .. وقلت لي إنك تحب عبير شعري الأسود .. وصمتّ أنا يومئذ مع انني لم أكن خرساء . كان الصمت المقدس من عاداتي والخجل دائي المستحكم .. حتى عندما كنت توصل أختك الصغيرة إلى مدرستنا بسيارتك الفخمة لم أكن أجرؤ على التأمل في وجهك ، بالرغم من إعجابي الشديد بك ، وقد أحببتك دائماً .. بهدوئي الظاهري وأنوثتي المشبوبة الخفية .. لم أقل شيئاً .. لم أرفع نظراتي قط إلى وجهك .. على الرغم من اهتمامك بي ومحاولاتك المكشوفة لإغرائي .. كنت أتمنى أن أضمك إلى صدري وألهب وجهك بأنفاسي .. ولكنني لم أفعل .. كنت خجولا وجبانة .. وكنتَ قد اعتدت الحصول على كل امرأة تعترض طريقك .. فلما وجدت انني الوحيدة التي لم تنجح فيها أساليبك التقليدية .. ظننت أنك أحببتني ، مع ان احساسك لم يكن سوى رغبة ملتهبة في الحصول عليّ كما أدركت بعد فوات الأوان — وتمت خطبتنا .. وسماني أهل الحي سندريلا . وتم زواجنا الفاشل وتركت عملي .. وانضممت إلى زمرة العاطلين بالوراثة ..

ما زالت الموسيقى تعزف بحرارة ، فضمّها إلى قامتك الفارعة يا سيدي وغيّبها في صدرك العريض . بالرغم من النيران التي تأكل عيوني ، لا أستطيع إلا أن أرى انك مدهش .. أنيق .. جذاب ووسيم .. رائع المظهر

كقبر رخامي براق . يتلألأ تحت أشعة الشمس بينما تزحف في أعماقه المتعفنة ديدان نهمة وحشرات مشوهة مرعبة تنهش كل جسد تحتويه . ديدانك يا سيدي نهشت من نفسي طيلة خمسة أعوام .. من شبابي وبراءتي .. من أحلامي التي دفنتها في قلبك النتن .. ديدانك يا سيدي أتت على البقية الباقية من صوتي وظلت تنخر في حنجرتي بشكل مرض أسماه الأطباء (الحبسة) .. حتى سكت .. إلى الأبد .. ومع ذلك ظللت حية صامتة كتمثال معذب هنا في الركن المعتم ..

خرساء أو لا خرساء .. لم يتغير الحال يوماً منذ زواجنا .. الدمى التي كنت تتلهى بتبديلها ، لم تكن أنت نفسك تهتم بحديثها .. كنت دائماً أتفه من أن تحب . أضأل من أن تشعر . وأحقر من أن تفهم ... كنت تجهل دائماً أن الحب يتطلب مقدرة معينة على الاحساس وعمقاً وإدراكاً .. وأنت لم تحب قط ولن تحب أبداً .. وأنا قد أدركت هذا كله وأخليت الميدان .. وهاانذي اليوم أتوقف عن حبك .. لماذا ؟ .. لماذا أرتعش وأخشى هذه الكلمة ؟ .. لماذا يدمي قلب المرأة أن تعترف بفشل حبها ؟ .. لماذا يأكل هذا الفشل من كرامتها وأنوثتها ؟ .. أنا خاسرة .. خاسرة . خاسرة : وحيدة . أصرخ ضائعة ولا أحد يسمعني . أتحدث بصوت مرتفع يموت قبل أن يترنح على شفتي . فأنا خرساء ولكنني ما زلت امرأة .

وتلك التي التقطتها من أسواق الغرور .. تلك التي تحمل بركة المايونيز والكافيار ليست امرأة .. ولكنها خرساء ... لم يخطر لها أن تستعمل لسانها قط إلا في تذوق الكافيار — والمايونيز ... وفي ضرب المواعيد على الهاتف .. وفي إلقاء تحية الصباح على أمها حينما تستيقظ في الثانية عشرة ظهراً وتقول : « هاي مام » وحين تخرج بعد العاشرة مساء « لأعمالها » وتقول : « باي مام » .. وحينما تقول لسائق سيارتها إذا قبلها أو إذا أسرع في طريقه « ستوب جوني » .. وعدا ذلك . فهي خرساء .. أما أنا فقد كافحت طويلاً منذ

مراهقتي لأساعد أبي .. وطالما رددت جنبات مدرسة الأطفال صياحي وهتافي . وتوجيهاتي ودروسي وضحكاتي ... والأغنيات البريئة التي كنت أعلمهم إياها .. لا .. لست أنا الخرساء .. إن صوتي حي في حناجر عشرات الأطفال الذين يرددون أغنياتي .. ويتسامرون بحكاياتي .. صوتي حي في قلوبهم ... حيث غرسته منذ أعوام وتركته هناك لتزيده الأيام صلابة وخلوداً .. صوتي حي في نفوسهم حيث وهبته لهم أغنية صافية تنبض صحة ، ونشيداً مشرقاً مطرزاً بالشباب والضياء ..

ويوم تزوجتك يا سيدي تركت عملي .. حملت معي حنجرتي الممزقة المستنفدة وقلت هذي واحتي .. ويا لواحة الجحيم ! يا لسوقكم الرهيبة .. سوق العبيد ! لم يخطر لي انني كنت رخيصة لديك .. فأنا بلهاء وفقيرة يا سيدي .. ولكنني امرأة .. وأنا قد انتهيت ولكنني لن أمضي بالبساطة التي تتصورها ..

ضم شقراءك إلى صدرك فقد بدأت تتعب ... ضمها إليك بعنف وقوة ... عذبني .. اسحقني .. فقد بدأت أجد لذة في عذابي ما دام يحررني من بقايا حبك .. لقد كشفت لك عن صدري فاضرب بقسوة .. فما زال في القلب دفقة دم ورعشة .. وما زال في الأعماق طيف حنين .. وما زالت طاقتي على التحسس بالعذاب هائلة .. وأنا الآن حائرة .. ضائعة .. ولكنها تضحك بين ذراعيك لا أسمع إلا ضحكتها وأنت تداعب رقبتها بوجهك وتدغدغ جسدها بين يديك بعبث ونهم .. رفاقك يحدقون إليّ بشيء من الرعب اللذيذ وبكثير من الإثارة . انهم يطالبونني بمشهد هائل .. يودون التلذذ برؤية عذابي .. يريدون قصة تلوكها ألسنتهم .. (ينتظرون مني أن أنهض وأقترب منك وأحاول انتزاعك منها ، حيث ترفع يدك القاسية وتصفعني .. وتعود إلى رقصك بكل برود بينما أنا على الأرض كتلة من اللحم المنهوش تدوسها الأقدام) ..

لذيذ هو ذلك الحقد الأسود الذي يتسلل إلى أعماقي .. ورهيبة هي تلك الأفعى التي تستيقظ في نفسي .. تنفث سمّها في أنوثتي وكبريائي .. وشرسة هي تلك النمرة التي تتثاءب في قلبي وأظافرها الحادة تتخبط في الفراغ .. بحثاً عن فريسة .. اني امرأة غيرى .. مزيج من أفعى ونمرة .

ضمّها إلى صدرك أكثر .. احمها مني فإن خدها يغريني بالصفع ... الخد الذي تتحسسه بشفتيك الآن .. وتغمره بقبلك السريعة اللاهثة .. أهون عليّ أن تنتزع أظافري ، أن أنتزعها أنا بأسناني .. أن أنهش ذراعي وأغرس المسامير في عيوني من أن تهان كرامتي وأنوثتي هكذا .. أمام الجمع الشامت .. أمامك أنت ..

ضمّها إلى صدرك ، فقد بدأت أجد لذة وحشية مؤلمة وأنا أرقبك وأنت تخطىء .. انني أمسك بمقعدي بشدة كي لا أنهض وأبصق في وجهك .. باشمئزاز مدمر .. انني أمقتك . هكذا .. فجأة .. أشعر انني أمقتك .. مزّق الحنايا التي نبضت ذات يوم بحبك .. لطّخ كل ما في نفسي بالدم والعويل حتى لا يبقى شيء يهتف باسمك .. أيها الوحش .. أغرس أنيابك في صدري .. وأنا فقيرة .. بلا صديق .. وأنا خرساء .. لا أستطيع أن أصرخ .. لن يسمع أحد عذابي اللاهث .. لن يتلذذ بدماري إنسان .. ضمّها إلى صدرك وأغرس مديتك في قلبي حتى آخرها .. لا .. لا تدعوا الموسيقى تخفت ، فقد اعتادت أذناي العويل .. وألفتا اللحن الجنائزي الكسيح الذي على أنغامه ترقصون ... إن الأفعى في أعماقي بدأت تتلوى وتمدّ جسدها في جسدي .. اضحكوا .. انظروا إليّ .. لم أعد أحس بشيء .. انها تنثر شعرها الأشقر على كتفيك .. وها هي ذي يدك قد تسللت إلى الخصر النحيف لتطوقه .. وشفتاك تأكلان من الأذن الصغيرة وتهمسان ببعض الكلام .. وأنا أعرف ماذا تهمس بأذنها .. انك تقول لها « تعالي يا حبيبتي إلى الشرفة فالقمر بديع كوجهك المشرق » تماماً كما قلت لي يوم زفافنا .. لم يخطىء

ظني فقد خرجتما إلى الشرفة .. لا ريب بأنك الآن تقبّلها .. شفتاها تتململان وتتأوهان بين شفتيك .. وأنا هنا زوجتك البلهاء .. ما زلت في الركن المعتم ، وشالك الأبيض كالكفن على كتفي وعنقي .. أود أن أصرخ .. أن أشكو . أن أقول شيئاً .. لا أحد يحس بوجودي .. وكلماتي الملتهبة تنطفىء في حلقي الدامي .. حتى صراخي ، مبحوح أخرس ، مخيف ، كحشرجة وحش ذبيح .. كأنين إنسان مشوه محترق .. الموسيقى تعول لحن (التابو) .. والعيون ترمقني .. أشعر إنني سأنفجر وأتطاير في الجو هباء ورماداً إذا لم أفعل شيئاً .. إذا لم أعبر عن عذابي .. إذا ظل البركان مخنوقاً في صدري واللسان حبيس الضياع .. تتململ الأفعى في أعماقي وترفع رأسها بعنف .. فجأة .. أنهض عن مقعدي وآلاف الصرخات البدائية تعول في دمي .. وأنا خرساء ولكنني الآن امرأة ، مدمرة .. طاقة عجيبة تتبعثر في كل جزء من جسدي .. انني أسمع صدى لطبول وثنية في معبد ضائع في البراري .. صدى بعيداً يعلو ويعلو بعدما تنعكس الأصوات على المذابح الحجرية المصبوغة بالدم .. دم شبان أقوياء . أحس أن رائحة البخور تعربد في صدري .. وان الأفعى بدأت تتلوى .. وإيقاع الطبول يسرع ويسرع .. صوت ناي بعيد يتسلل إلى ذراعي وصدري ويلف جسدي المرتعش كله .. ولكنني ما زلت واقفة .. جامدة .. وقد بدأت الأفعى تثور وتتمرد .. ان يداً تتسلل لترمي بالشال إلى الأرض وان قدماً ترتفع وتدوسه قبل أن تخطو إلى الأمام ببطء لذيذ . شالي .. هدية الخطبة .. كفني .. تحت أقدامي .. لا .. يجب أن أجلس .. اني بلهاء وخرساء .. وتصرخ الأفعى في داخلي . ولكنك امرأة جريح .. انني أخطو إلى الأمام وأحس أن لحن الناي الذي يتأوه ويتلوى قد تسرب إلى جسدي وأن الأفعى بدأت ترقص بحبور غريب ..

وفجأة .. يلمع في عيني بريق شيطاني عجيب .. تمتد يدي بسرعة لتفك قيود شلالات من الشعر الأسود تنهمر بعنف على كتفي العارية

وتتناثر بفوضى غريبة .. تمتد يدي مرة أخرى لتخلع الحذاء وترميه .. يخيل إليّ أنه يصيب وجه زوجي . أتلذذ بهذا الشعور .. الكل يحدق إليّ بذهول وخوف .. الموسيقى لا زالت تعزف .. أشعر أنني جميلة . جميلة بثورتي وتمردي وجميلة بالشعاع الشيطاني المخيف في عيني .. بدأ جسدي يتلوى ويتمايل .. والأفعى تطرب وتترنح . كل جزء في جسدي ينطق بفصاحة خارقة مثيرة .. أحس انني لم أعد خرساء .. وأن عيون الرجال تلتهمني بنهم .. وأن عيون النساء حاقدة .. مدهوشة .. كيف تحرك التمثال ؟

كيف نطق الألم ؟؟ .. إنني أنضح عذابي حبات من العرق أحسها تسيل على جبيني .. الأفعى تتأوه بداخلي وأنا أرقص بوحشية بدائية .. بحرقة .. بلوعة .. بعنف مذهل مدمر .. بفجور متمرد .. صدري المرتعش يعلو ويهبط .. ثوبي يكشف ساقي كلما درت ودرت محدثة أياهم عن الدوامة التي تسحقني .. انني أنطق بأصابعي وبنهدي وبشعري المتطاير .. أنطق بجسدي الذي يتمايل ويتوجع .. الأفعى نشوى .. والفراغ حولي يضج ويهذي .. نظرات الجميع المحمومة تتحسس جسدي بوله وجوع .. وفجأة تتعلق نظراتي بك يا سيدي .. أراك تحدق إليّ برغبة جامحة مريرة .. كالكلب المسعور .. ولكنني لن أبالي بك .. أظل أرقص . أفرغ عذابي رقصاً .. أفرغ حقدي رقصاً .. أصرخ وأشكو ، أتأوه وأنتحب رقصاً .. لقد استرحت .. نامت الأفعى بسلام .. واستيقظت النمرة .. خرست الموسيقى .. وانتهت رقصتي .

يلتف الجميع حولك يهنئونك بزوجتك الحسناء التي استعادت مرحها .. أعرف أنك تتعجل انصرافهم .. وتفكر في الوليمة التي لم تخطر لك ببال . بالمرأة الجديدة التي تقمصت زوجتك الفقيرة الخرساء .. بالجسد الذي ستنهشه الليلة لترميه في الصباح .. أبتسم لك بسخرية مومياء .. تتحرك النمرة في أعماقي ثائرة وتكشف عن أظافرها .. الجميع ينصرفون .. أصعد إلى

غرفتي تتبعني كالثور الهائج .. كم هو لذيذ أن أرى الجوع المحموم في عينيك .. الألم المراهق في وجهك ، ولكن زوجتك الخرساء الذليلة ستنام منذ اليوم فصاعداً وحدها .. راضية .. متشفية .. ماذا ؟ .. أتقترب ؟ لا يا سيدي ، لن تنهش بعد اليوم .. سوف يأتي الكثيرون .. وسيظل باب مخدعي موصداً .. وسأظل خرساء .. غامضة .. كأبي الهول .. لن أنطق إلا حينما أرقص لأثير عواء الذئاب .. ولأدمرك يا زوجي الطفل الذي اعتاد أن يحصل على كل دمية يشتهيها .. واعتاد تحطيم الدمى ..

أخرج من غرفتي يا سيدي ، فقد بدأت النمرة تشرع أنيابها وبدأت يدي تدفعك من دربي .. ما أحلى الذهول والحيرة والعذاب في عينيك . ما ألذ رائحة الحريق من صدرك ! . أجل .. أنا زوجتك الخرساء الجميلة .. أطردك من مخدعي وأوصد بابي ..

ها أنذا الآن وحدي .. انني أغمض عيني لأنام . أحس أنّ في حديقة القصر أفعى أحاط بها خطر مبهم من كل جانب .. إنها تغرس نابها السامّ في بطنها ، إنها تفرغ في نفسها كل ما لديها من ذيفان مهلك .. إنها تجمع بعضها وتنطوي على نفسها .. تنام ..

وأجمع ما بقي من نفسي .. وأنطوي على حقدي وسمّي .. أحاول أن أنام .. لا أستطيع .. أحاول أن أصلي .. ولكنني .. خرساء ..

مغارة النسور

الظلمة تتخبط في الدروب الوعرة . الصخور ترتمي في طريقي الواحدة تلو الأخرى . الأشجار تعدو نحو الوراء . والأشواك تزحف تحت أقدامي .. السفح ينسل صوب تل القلعة المهترئة ، حيث خلفت الضابط الأعرج ثملاً ، ومثتي صندوق رهيب في القبو ، وعشرات الخنازير والذئاب ..

ما زلت أعدو مجنونة السرعة ، الرياح القارسة تضرب وجهي ، المطر المتدفق يغسل القمة الشامخة التي تقترب مني وأنا أشق ذرات العتمة بصدري المرتعد ، حيث أخفيت قطعة غضروفية يتدلى من أحد طرفيها قرط ذهبي بشكل هلال أعرفه جيداً .. وكلما تعثرت مددت يدي لأتحسس القطعة الغضروفية بحنان ذبيح .. بحقد مجنون مدمر .. نظراتي نار تحرق الظلام .. تخترق الصخور وتدور في المنعطفات .. تتخطى وعورة الجبل وتلتقي بالقمة الزاحفة نحوي .. وتنتهي عند باب مغارة ضائعة بين أعشاش النسور في ذرى الأوراس حيث تتمسح بزوجي حنفي ، تنبئه بأنني ههنا ، أصارع العاصفة لأصل اليه وإلى اخواني ، والتماع البرق يحرق أهدابي .. تنبئه بأنني غادرت سيدي الضابط الاعرج إلى الأبد ، فقد أحسوا بي هذه المرة ، وأدركوا ان « بسمة » خادمتهم الجزائرية الصامتة التي انتزعوها من زوجها في القرية المجاورة ، بسمة تتجسس عليهم وتتظاهر بالصمت .. بسمة تنقل ما يتدفق من فم الضابط الاعرج الثمل ..

– زجاجة اخرى يا بسمة .. أريد أن أحتفل بوصول المثتي صندوق ..
– أمرك يا سيدي ..

أمرك يا سيدي وأطير في الدرب اللاهث ، لأنبئهم ان ثمة مئتي صندوق من المتفجرات ترقد في أقبية قلعة الضابط الاعرج .. مئتا صندوق لابادة القرى الثائرة حول قلعته المهترئة ..٠ مئتا صندوق تزرع الحديد في أحشاء الاطفال .. تبصق الدخان في رئات النساء ؛ وتحصد البيادر .. مئتا صندوق احتفل بوصولها منذ ساعات .

— يا بسمة زجاجة خمر أخرى .. ألا ترين انني عطش ؟

— أمرك يا سيدي ..

أمرك يا سيدي والحقد يتلوى في أضلعي ويكاد ينهمر .. أمرك يا سيدي والثورة تنتفض في أغواري مجنونة التفجر ، كلما وقعت عيني على علبة دامية إلى جانبك ، انسكب من احد أطرافها خيط رفيع من الدم واختلطت فيها قطع غضروفية ، وينغرس في مقلتي وهج قرط ذهبي يتدلى من احداها ...

— أسرعي يا حمقاء بزجاجة أخرى .. ألا تسمعين ؟ ..

— أمرك يا سيدي ..

وألعب دوري بمهارة ، والأعرج راض عن خادمته بسمة .. انها أفضل من النساء العشر اللواتي اشتراهن بعشر بقرات مسروقة ، بينما يرقد رجالهن في أقبية القلعة بين السقف اللاهث والديدان النهمة ..

أمرك يا سيدي الثمل !

وأكاد انقض عليك .. انتزع أذنيك بأسناني .. أمزق وجهك بأظافري .. أطبق على رقبتك اللزجة الطرية كضفدع مستنقع دبق .. وأظل أضغط بقسوة، بحرقة ملتاعة ، وأنفاسك المخمورة تضرب وجهي كالنسيم الذي يهب عن جيف كلاب مهترئة .. الزبد يتدفق من فمك ، يغطي وجهك .. وأنا أضغط .. ذعر رجل بلا رجولة وتوسل جبان بلا كرامة يتعانقان في عينيك .. يفيضان منها ويضيئان في الزبد الراغي على فمك اللاهث كفوهة منخر

ثور مجهد .. وأظل أضغط .. ويوقظني من أمنياتي شخير الثمل ، وصوت تحطم القدح الذي سقط من يدك المخمورة على الأرض ..

اقترب من الصندوق .. أتناول منه قطعة غضروفية تدلى منها قرط ذهبي على شكل هلال .. أدسها في صدري .. واللوعة المدمرة تنضح من مسامتي ..

وأتركه يحلم بأطلال المدن وأنقاض القرى العزلاء وأطار الخيام .. والرعب الحزين يتأوه أخرس من الأقبية المتعفنة .. والطيب يفوح من جثث اخوتي .. مثنا صندوق في القبو . يجب أن أصل .. الرعد يبتلع لهثاتي المجنونة ، والمطر يعانق رماد الطيب في المنحدر .. وأنا أعدو بركانية التدفق .. لا أسمع سوى هدير الدم تحت الرمال . لا أشعر بنيران الرشاشات التي وجهها الأنذال إلى الجبل الذي أتسلق .. إلى حيث هربت من قلعة الدمار .. لا أدري إن كان أحد يطاردني أم لا .. لا أسمع صوت الرصاص ينهمر حولي .. لا شيء يهمني .. لا أرى سوى مغارة النسور تتمطى في حضن الجبل .. مغارة النسور تناديني .. تسألني عن أخبار القلعة .. عن المعدات والصناديق التي تصل إليها من كل حدب . عن الشبان الذين جاءوا يحاربون دون أن يفهموا معنى الحرب .. وأنا ما زلت أعدو مجنونة الاندفاع .

صوت حاد يخترق أذني .. نار مبهمة قد اشتعلت في كتفي اليمنى .. ذرات الحريق تنسل في عروقي .. والنار .. ولم أخش النار وأنا كتلة جمر ملتهب تندفع نحو القمة ..

سائل بارد يختلط بالمطر ويغسل صدري وذراعي .. إنني متعبة .. أفاعي الألم تتلوى في كتفي وتشتبك مع شعري في ضفائر من عذاب .. يجب أن أركض .. أن أظل أركض . الألم المرهق يدق طبوله في رأسي فيسكرني دويه وأكاد أهوى . جرحي غزير التدفق .. الجدول يئن بجانبي ، والصخور بدأت تبطىء في ارتمائها .. السفح ينسل بتكاسل نحو السهل ،

والقمة تتحرك بهدوء ممزق نحوي .. ماذا حدث ؟ ..

ما زالت مغارة النسور بعيدة ، تخرج من فوهتها أبخرة ضبابية الحمرة ، ورائحة بخور وطيب ، وألحان ثائرة الحزن مخنوقة اللهاث ..

ما زالت مغارة النسور تلوح بعيدة في الذرى ، لكنها تضيء ! .. وأنا أتسلق النور .. أتلوى مع خيوط النور .. أزحف بين أسلاكه .. أرتعش مع تموجاته .. وأود لو أذوب .. أفنى في سفوح الأوراس .. في ذرى مغاور النسور .. والدفء الكاوي يدمي كتفي .. وأنا كتلة من حقد وعذاب متفجر .. أدب في الدرب المظلم ..

— « أمرك يا سيدي » ...

ثلاثة أعوام وأنا أقول للبعوضة العرجاء : أمرك يا سيدي ! ثلاثة أعوام وأنا أحمل له زجاجات الخمر ليشرب نخب حيتان الأطلسي ! .. ثلاثة أعوام وأنا أشهد قراصنة فرنسيين يقبضون ثمن صناديق معبأة بالقطع الغضروفية .. بآذان اخوة وبنات لي ..

وأمدّ يدي الدامية لأتحسس الأذن المدفونة في صدري وأرى الربيع يرقص في عيني ابنتي .. وأراها تلعب في أحد أزقة القرية اللاهثة بالحريق .. وأراها مرمية قرب دميتها المحطمة . مغروسة في الأرض بحربة مدببة .. رجل أزرق البياض ينحني بسكينه على الرأس المعول .. ينهض عنه بعد ثوان وفي قبضة يده أذنان داميتا الدفء ، يتألق فيهما قرطان ذهبيان بشكل هلال زينت بهما الأذنان الحبيبتان ذات ليلة . ثم يضعهما باهمال في أحد جيوبه ، يتلمظ بحقارة وهو يتخيل العقد الماسي الذي سيهديه لغانية تدب في ظلال السين النتنة .. ثم يقطب حاجبيه باحثاً عن مئة جزائري أعزل .. مئة طفل أو امرأة .. عن مئتي أذن تدفع له مدينته ثمنها .. ليزين صدر غانية السين باللآلىء ..

(زجاجة خمر أخرى يا بسمة .. أريد أن أحتفل الليلة ..

ـ أمرك يا سيدي ..)

ستدفع غالياً ثمن كلمة سيدي ! ساعة تزلزل القلعة وتثور المتفجرات .. ويتناثر رأسك الأجوف في فضاء الليل ثم يستقر فوق كوم من الآذان المقطعة ... ثلاثة أعوام وأنا أرسم الذل الصامت على وجهي ، كي أنبىء اخواني بأفكار جهنمية الحقارة ... حتى الليلة .. حينما التمع القرط الذهبي في زاوية العلبة الدامية . كادت الدمعة تطفر من عيني .. لكنني جمدتها فجأة .. أنا لا أبكي .. قد أمزق .. قد أعذب بالكهرباء كما فعلوا بأخي في زاوية القبو الطحلبية .. وقد اشوى في الفرن حية كالفتى الذي رفض أن يتحدث عن مغارة النسور .. لكنني لا أبكي .. ماذا لو ماتت ابنتي ؟ .. كل يوم تموت ابنة لي في السفوح . لا أحد يموت هنا .. لا أحد يبكي .. كلنا نحفر قبوراً للقراصنة ..

بحار رمالنا سئمت القراصنة .. بحار رمالنا تتمطى .. الدم يهدر تحت ذراتها ، النور يتأوه في الصخر ويود لو يتفجر .. الشمس تتسكع متفجعة وتود لو تحرق .. الزلزال يتلوى هائجاً ويود لو يدمر .. المعاول ارتفعت في السواعد ، وعما قريب تهبط في أحشاء متعفنة بالخمر والخنازير .. القلاع المهترئة ستهوي ، والأقبية المتعفنة ستغور .. وأنا ما زلت انسل بين أضواء مغارة النسور .. أعدو نحو مغارة النسور .. منارتي التي تغمز لحقدي في الظلام ببراءة متمردة ... تهمس مع النسيم فيجيء النداء خائر القوى .. ويجعل مسام جسدي تتلذذ بالسائل البارد الذي يرسم ورائي على الرمال النشوى خطاً أحمر من لهيب .. الريح تعوي وتعانق اللهيب المتأجج .. وأنا أحمل جرحي وأزحف به فوق الصخور التي تمزق وجهي .. فوق الأشواك التي تنغرس فيه فتدميه .. وأظل أزحف والمطر المتدفق يعانق الرمال .. وأنا أتعثر .. أنزلق .. أتأوه .. لا أشعر بشيء .. لا أرى شيئاً سوى مغارة النسور تغمز من بعيد .. وحنفي هناك بقامته الفارعة ، وبحار النبل في عينيه ،

وتيارات رجولة خفية تتمسح بجسده .. حنفي بين اخوانه في المغارة .. يمسحون بندقية وجرحاً ، ويتسللون أشباح رعب تصعق الغرباء قبل أن تلمسهم .. كم أنا بشوق لرؤية حنفي .

الأفكار تدور وتختلط في رأسي كشعر الجنيات المتطاير . أمرك يا سيدي .. ثلاثة أعوام وأنا أقول للأعرج الثمل سيدي ، كي أتسلل في جنح الدجى إلى سفوح مغارة النسور حيث ألقى حنفي واخوانه .. أزودهم بما سمعت .. باسم القرية التي ستكون ضحية (رحلتهم التأديبية) .. القرية التي سيدخلها جنود يرتعدون وراء النار والحديد كما دخلوا قريتنا منذ ثلاثة أعوام .. يقتلون ويقتلون .. ونظل نحن ندفن ضحايانا في أعيننا .. نرفعهم نجوماً فوق جباهنا .. نخزنهم دفقة حياة في أعماقنا .. نحمل حقدهم في قلوبنا ..

اني أترنح ، الأشجار تقفز في طريقي وتصطدم بوجهي ، الصخور تزحف فوق جبيني ، والحصى تتبعثر في جفوني .. السائل البارد ما زال يغسلني ، وأنا لا أرى شيئاً سوى النور في مغارة النسور ..

النور يحرق أهدابي .. ويدي تمتد إلى صدري لتتحسس بحنان وحقد مدمرين قطعة غضروفية كانت أذناً لابنتي يوم كان لي ابنة !! ..

مئتا صندوق ! ألتفت ورائي وتلوح القرية من بعيد وحشاً خرافياً يبصق النار والشؤم ..

لم أعد أستطيع الحركة .. آلامي حبال فولاذية تشدني إلى الأرض .. إلى الأرض .. ومغارة النسور تناديني .. يجب أن يعلم حنفي والآخرون .. ان اصبعاً من الديناميت تكفي هذه المرة .. تكفي لتمتد النار إلى الصناديق النائمة في القبو بجانب زجاجات الخمر المستندة إلى حائط طالما هوى عند طرفه الآخر أخ ، أفرغت في جوفه صنابير ماء ، وفي جلده شحنات كهرباء ، وتحت أظافره دبابيس حمراء .. وظلت مغارة النسور في الذرى منارة تتدلى ظلالها من مقلتيه ، لتصفع غانية السين في وجه الضابط الأعرج ..

وفي جانب القبو الآخر أكداس من الجرحى العرب .. بعضهم قد قتل .. وبعضهم سيقتل قبل أن يعذب أو بعد أن يغرس الحديد المحمى في جرحه المتدفق .. سيقتلون جميعاً لكنهم لن يموتوا . فنحن نُقتل ولا نموت ...

إنني أتهاوى وأترنح .. الأشجار تدور والصخور تتدحرج والسيول تتدفق .. وأنا أتسلق خيوط النور نحو مغارة النسور ، ويداي تسترخيان .

خيوط الألم الفولاذية تشدني إلى الصخر .. وأنا أرفع ترتيلي إلى الأبخرة الضبابية الدامية المتصاعدة من فوهة المغارة .. أنا أهوي .. أمرك يا سيدي ..

ستنفجر صناديقك .. ستعود أذن ابنتي إلى مكانها .. وأنا أهوي .. أنادي كوحش ذبيح في القفار .. وأنا أهوي .. الأشجار والصخور تضيع في العاصفة .. وأنا أهوي ... أهوي :

« ماذا أرى ؟ .. حنفي أمامي .. الاخوان حولي راكعون في الوحل الدامي .. أسرعوا فقد وصلت الشحنة .. أسرع يا حنفي قبل أن يهرب الليل مع العاصفة .. أنا بخير ... بألف خير .. انتظر .. خذ هذه الأذن .. أعدها لابنتنا عندما تراها .. »

أحدق إلى مغارة النسور ممزقة المقلتين ، دامية النظرات .

النور يحملني ويطير بي إلى فوهة المغارة .. الأبخرة الضبابية الحمر تحنو على جرحي الدفيق .. دفء العرين ينسل في عروقي مع رائحة الطيب والبخور ألحان ملائكة خافتة ، مجرحة ، عميقة المدير ، تتسلل فتقطع خيوط الألم الفولاذية .. لحظة اشراق عجيبة تغمرني والرؤى تنبلج أمام عيني فجراً مدهش الضياء ...

أرى الدم يغلي في الأرض .. من كل ذرة رمل ينبجس جدول .. النور ينسل من الكهوف المظلمة .. الطيب يفوح من الجثث المحروثة .. الصخور تتمخض .. النار تتفجر من الصخر .. الشمس تبزغ من الرمال .. تسجد تحت أقدام جبابرة سمر الجباه .. أعصار يلتهب في كل عين ..

الأشجار والجداول والقبور المفتوحة تهذي : « الثأر يا سفحي ويا جبلي ويا أعشاش النسور في المغاور » .

وأرى اللهيب والعواصف تهز برج إيفل .. وأرى الثلوج حمراء دامية التهطال .. وأرى غواني السين العجائز يتسترن بالظلال والعاصفة تغسل عن أخاديد الوجوه المرعبة طلاءها الملون .. فتبدو الأفاعي والديدان الجائعة .. والذعر يكتسح الساحات .. والعار يجلل شتاء فرنسا .. وأنا هنا .. أتمرغ في طهارة الوحل الدامي .. وأرقب طلائع زحف هادر من بعيد .. وأرقب انجلاء العاصفة ...

أضم القمر إلى صدري .. لم تقتله العاصفة وإنما غسلته .. وها هوذا يرقص في ليالينا وقد ازداد نوره تألقاً وثباتاً ...

أسمع صوت انفجار هائل .. أرى قلعة الشؤم تتطاير في الفضاء الرحب هباءً ورماداً ... قلعة الشؤم ضاعت ... هباء .. هباء .. وأطبق عيني بسلام بينما يبزغ فيهما فجر دام وليد ، وأنا أردد بلذة محمومة : يا مغارة النسور .. لا أحد يموت هنا في الجزائر .

الطفلة محروقة الخدين

الليل والقمر وصحراء دمشق . وأنا بين ذراعيك .. ولكن . أغفر لي برودي يا زياد .. أغفر لي انني لم أمنحك نفسي الرخيصة كما منحتها للكثيرين من قبلك .. أغفر ليدي التي أبعدت شفتيك المحمومتين عن سفوح الجليد الملتهب ، واغفر لقسوتي التي انتزعت من بين ذراعيك القويتين جسداً متعباً يضج بالحنين ..

لكنني سئمت يا زياد .. سئمت ضباب الأوهام الذي أغرق فيه نفسي .. وسئمت التظاهر بالتصديق . أمنح نفسي لقاء كلمات حب أعرف انها كاذبة ، ولكنني بحاجة إليها ، بحاجة إلى أن أحس ان انساناً حولي يعطف عليّ .. يشاركني في ضياعي .. كنت أعب من السراب وأظل عطشى ، لساني جاف مشقق كالصبار البري . أعب من شفاه كاذبة .. أعرف أنها كاذبة ولكنني لا أستطيع التوقف ، فأنا امرأة متعبة ضائعة ، في أعماقي طفلة تائهة محروقة الخدين ، تئن وتتأوه ، وتبحث بعينين خابيتين عن يد حنون مضت ذات ليلة .. يد أمي التي سحقها ترام يمر أمام نافذة غرفتي كل يوم عدة مرات .. كانت عائدة من السوق .. سمعت صراخاً ونحيباً فأطللت من النافذة . رأيت كتلة من اللحم معجونة بالدم قالوا انها أمي ! .. وتوقعت ان تتلوى القضبان ويتمرد الحديد ويتفتت الحجر ويدمي اسفلت الشارع .. ولكن شيئاً لم يحدث ! .. ظلت الحافلة تمر كل يوم عدة مرات ... عيونها الكبيرة البراقة تتحداني كل ليلة .. الناس الضاحكون فيها يسخرون من عذابي .. يقهقهون بوحشية كأن أمي لم تتكوم ذات صباح على هذه القضبان ..

لحماً رخيصاً معجوناً بالدم ! .. لم أفعل شيئاً.. أغلقت نوافذ غرفتي على نفسي ..

أغفر لي برودي يا زياد ، فأنت لاتدري أية براكين في الأعماق أكابد وأعاني .. حينما ضممتني إلى صدرك ، وسكبت أنغام هواك في أذني وهتفت باسمي وكأنك تمتص الحروف صرخت الطفلة محروقة الخدين في أعماقي :

ـ لا تمنحيه جسدك لأجلي هذه المرة .. نريد عطاء بلا ثمن .. نريد شيئاً كالحب الذي منحناه لحسان .. أما سئمت البيع والشراء ؟ .

أجابتها المرأة اللعوب التي هي من بعضي :

ـ لكن « حسان » كان يمنح بلا مقابل لأنه غير قادر على الأخذ .. في مدينتنا ندفع ثمن الكلمة الحانية لحماً أسمر .. ألا تعلمين ؟

ـ ولكننا لا نحصل إلا على التفاهة والخداع لقاء بضاعتك الرخيصة .. لقد سئمنا ذلنا ..

ـ ادفع لأجلك وتتذمرين ؟ . انك لا تستطيعين الحياة بلا خمرة الحنان . لقد أدمنت العطف الكاذب وعودتني دفع الثمن لأجلك ..

أجابت الطفلة محروقة الخدين :

ـ ولكنني أحبه هذه المرة .. والحب الحقيقي صحوة من صحوات الوعي لا سكرة..أريد..اريد أن أرى ما وراء البسمة،اسمع ما وراء الهمسة وأعرف ماذا تعني اللثمة .. أريد أن أعرفه على حقيقته .. أن أفتح عيني للنور ولو أحرقها .. سئمت ظلمة الهوى الكاذب .. أريد أن أعرف هل في مدينتنا إنسان واحد حقيقي لم يتحول إلى آلة تمارس الحب والصداقة بالطريقة نفسها التي تصب بها الحديد المصهور في القوالب البلهاء .. انسان أضيع في عمقه ولا أسمع صرير الحافلة الكهربائية وضجيج الشارع ،

وصخب القطعان البشرية التي تتدفق أحياناً من أبواب النوادي كالخرفان الضالة ..

اغفر لي برودي يا صديقي .. فأنت دافىء كنيران المعابد ، مثير كأحلام العذارى ، رائع الرجولة كإله وثني . كل ما فيك ظل يناديني بحرارة ، بقسوة ضارية ، منذ ضمتنا رمال الصحراء .. والليل .. والقمر .. تمنيت أن ألبي النداء .. ان اضيع في الصدر الأسمر ، أدور مع الدوامات المحمومة وأنهش من الذراع المفتولة .. اقترب منك والشرر يتطاير من شفتي ، لكنني أسمع الطفلة محروقة الخدين في أعماقي تبكي وهي تركض هاربة من سهولي الحمر ملتهبة الحشائش إلى كهوف جليدية سحيقة وتصرخ بيأس : « حسان .. أنقذني يا حسان » ... تتناثر الثلوج تحت قدميها العاريتين ، تلطخ وجهي ، تطفىء الشرر في شفتي . أبتعد عنك . ترتسم في عينيك نظرة غامضة . تهمس أنت بتحد موئلم : « باردة » !

أجل باردة ! .. قلبي مغاور جليد أسود تزيدها الأيام برودا وغموضاً . نيران الجحيم تتراجع عن صقيعي ، وجمرات الرغبة الرجيمة تجف في سفوحي .. لا شيء هنا سوى الثلوج . برد الشمال الأزرق يلف الجسد الأسمر العاري ...

كلمة واحدة صادقة ، أوئمن بأنها صادقة .. بسمة حنون أشعر بأنك ترفعها للطفلة محروقة الخدين بلا ثمن تصهر أكوام الثلوج وتبدد الشتاء المكفهر في نفسي .. لو قلت لي انك تحبني .. تحب عيني البريئتين وطفولتي الجريح .. لو قلت لي ان مجرد وجودي قريبة يسعدك .. مجرد احساسك بأنني أهتف باسمك في أعماق أعماق صمتي يرضيك .. لو قلت لي بعينين هادئتين كبحيرة الأصيل : « أحبك يا صغيرتي » لذاب صقيعي ، ولغسلت الطفلة بالدمع قدميك ، ولأضحى اللحم المضغوط طوع يديك .. ولكنك لا تفعل ذلك . انك تقطب حاجبيك وترميني بنظرة استخفاف قاسية جاحدة ..

وتهمس « باردة ! .. »

تتحفز أنوثتي لدفع التهمة . أرمي بشعري إلى الخلف بدلال بينما أواجهك بنظرة تصهر غضبك وتشعل نيرانك من جديد .. اقترب بوجهي منك مثيرة محرقة .. أبتسم لك . اني آلهتك السمراء القوية .. آه .. تسقط الطفلة في أعماقي على صخور ناتئة وتسيل دماؤها في الصحاري الشاحبة .. لم تستسلم هذه المرة .. تتأوه قائلة : « لا تدفعي ثمن الفتات ، دعيني أتأكد من حقيقته ولو تعرضت لفقده .. لعله الإنسان الوحيد في المدينة .. حسان الجديد » . ولكنني كنت تلك اللحظة بين ذراعيك .. أريد أن أضيع عن نفسي في ضبابتك الحمراء التي تكاد تلفني .

بوجهك ضحكة فيها شبح حنان كاذب .. ولسانك يقول : « أهواك يا صغيرتي » ، وأنا أعرف أنك تقول هذه العبارة لأية امرأة في مكاني .. طفلتي الذليلة تمردت اليوم لأنها تحبك .. انها تصر هذه المرة على أن تحيا حقاً أو تموت .. على أن تملك كل شيء أو لا شيء !

الليل والصحراء وأنت يا أتون النشوة .. ولكن ، لا شيء يثيرني ! أغفر لي يا زياد فقد سئمت غيبوبتي ، انغماسي الابله اللاواعي ، وسعيي اللاهث لاضاعة شعوري .. أريد الحقيقة .. الحقيقة التي تحرق أو تضيء .. سئمت انتظاري وجبني . أريد أن أعرفك . أن أقبلك دون أن أسمع صدى صرير عجلات الحافلة المجنونة .. أريد أن أفهم هل يمكن أن يشارك إنسان إنساناً آخر إحساساً واحداً في هذا العالم الكبير الصغير ؟ ..

إنك تضمني إلى صدرك بحنان مصطنع .. بدأت الراحة الذليلة تتسلل إلى جسدي فتغرقه .. لكن الطفلة محروقة الخدين لم تتخدر حينما طمست شفتاك أصواتي وابتلعت احتجاجاتي .. بل ظلت تهوي من صخرة لصخرة حتى استقرت في مستنقع مصفر الخضرة .. انها تتلوى فيه والأفاعي تدور حولها وتلسعها كلما ازدادت شفتاك اطباقاً على شفتي . وابتعد عنك .. كأنني

ما اجتررت ذكرى لقائنا الأول ، في الصف ، ليالي وليالي .. كأنني ما عبدت عينيك الزرقاوين . . كأنني ما ناديتها في ضياعي : « يا بركة الضياء .. يا عالم الصفاء .. يا عيني زياد الغاليتين .. اغرقاني في اللجة المسكرة » .. كأن الطفلة محروقة الخدين لم تجلس في أعماقي وديعة كالقطة ، بينما كانت يدي الصغيرة تضيع في يدك القوية التي تتسلل وتمسك بها في الليل .. في رحلاتنا الجامعية ... في حفلات التعارف البسيطة .. كأن الطفلة محروقة الخدين لم تغمض عينيها بغبطة الهية كلما تلامست أذرعنا بقصد أو بدون قصد في الدرس بينما الأستاذ يشرح .. ويشرح .. وتضيع النظريات العلمية وتتبعثر في فضاء الصف مع عشرات النظرات الذائبة .

أجل أحببتك ! أحببتك بوحدتي الدفينة تحت ستار مرحي ، وضياعي المقنع بعبثي وصداقاتي الكثيرة ..

وانتفض قلبي عطشاً .. وانتظرت طفلتي غيثك السخي ، حنانك ، صداقتك ، وفاءك .. قيم ومثل طالما قرأت عنها وآمنت بها .. أحلام ضائعة طالما لملمت حطامها ورفوتها وحنوت عليها حنو امرأة عاقر على طفل لقيط !

لم يكن من الصعب أن ألفت نظرك ، أنا التي تتحول إلى عيون الأساتذة قبل الطلاب كلما دخلت الصف متأخرة ..

وها نحن قد التقينا ، والليل دافىء ، وسيارتك الفاخرة مريحة كأحضان عاشق ، ورمال الصحراء الحارة تتلوى بغبطة مترفة في ضوء القمر .. لكن الطفلة محروقة الخدين تنتحب :

« أحب هذا الرجل .. أريد أن أحصل عليه دون مساعدتك الدنسة ، أريد أن أتأكد من أنه حساننا .. حسان لا يحتاج إلى وساطة » . أشمخ بصدري فجأة حين أجيبها : « ستفقدينه .. لن تحصلي بنفسك حتى ولا على بسمة حانية دون دفع الثمن الأسمر » .. تتأوه أنت لمنظري المثير وتضغط أسنانك ..

أنا والطفلة في أعماقي يا زياد ما زلنا نحب حسان ... ونبحث .. نبحث عنه في كل عين وكلمة .. حسان ؟ تريد أن تعرفه ؟ ولكننا نحن أيضاً لا نعرفه .. أنا والطفلة محروقة الخدين نجهل مكانه .. لم نره قط ! لم تلمس أناملنا يده القوية .. لم تتلاقَ عيوننا يوماً ! ولكننا نحبه .. نحبه ..

أرى في عينيك دخاناً خامداً وسؤالاً حائراً .. لعلك تتساءل عن سبب صدّي وإعراضي أنا التي أعبدك .. أم انك تريد أن تعرف من هو حسان ؟

« حسان ! حبي الوحيد .. ما عرف بوجودي أبداً في هذا العالم الواسع أيام كان حياً .. وأنا .. لم أشعر بوجوده إلا يوم مات .. ومضى » ..

أرى الحيرة في نظراتك والسأم في خطوط خديك التي ازدادت عمقاً وظلمة .. مهلاً .. لا تدر محرك السيارة وتعد بي إلى المدينة الجبارة : ألا تريد أن تسمع من هو حسان ؟ ألا يمكنك أن تمنحني بضع دقائق صامتة بلا ثمن ؟

حسان ! .. رأيته للمرة الأولى منذ أعوام – ضابطاً شاباً وسيم الوجه حزين العينين ساهم النظرات ، حنون التعبير – صورة كبيرة في إحدى المجلات وقد كتب تحت رسمه : الملازم الشهيد حسان !

رأيت الصورة كما رآها الآلاف ، ولم أهتم بمعرفة كيف ولماذا مات .. وكان ذلك يوم لقائنا الأول .. لا أدري أي صدى لقيت ملامحه في نفسي حتى قصصت الصورة ووضعتها في اطار أسود في غرفتي .. لعلها مراهقتي .. لعلها وسامته والحزن الآلهي العجيب في عينيه .. لعله جوعي إلى المثل الأعلى والرجل الخالد . ولما جاءت إحدى رفيقاتي لتزورني ذلك اليوم ، أدخلتها إلى غرفتي دامعة العينين وأنا أقول : أنظري صورة حسان .. حبيبي .. مات وسيظل يحبني أنا وحدي إلى الأبد ! » كنت أبكيه حقاً .. وكنت أبكيه كلما أحسست بضيق مبهم .. وكلما أحسست بحنين المراهقة الغامض إلى ما لا أدريه . فامسك بالصورة بحرقة وكأنني أنادي في حسان رغبتي وأرى فيه

تجسيداً لأحلامي . انه رجلي الذي لا يخطىء . لي وحدي .. ملكي لا يشاركني فيه مخلوق .. أنا لا أرضى ببعض رجل ! أبداً كنت أريد حباً كبيراً حقيقياً أو لا شيء على الاطلاق ! وأضحى حسان حبي الكبير .. إنه لا يستطيع أن يخونني .. ان يعذبني . انه ميت .. وأنا أحب بكائي أمامه .. وأحب الحقيقة في كونه ميتاً لأنه مثلي الأعلى ! ولأنه ككل المثل العليا لا يمكن أن يحيا ويتنفس في عالم الحقيقة القاسي .. يا لمراهقتي ومتناقضاتها وحيرتها !

ومرت أيام وأعوام وانغمست في عالمي .. ونسيت صورة حسان في بعض الفترات حينما كان يظهر في حياتي ما أظنه « حسان » جديداً ، أضع صورته فوق صورة الحبيب الأول واسبغ عليه صفاته وقيمه وأمنحه مكانته حتى إذا ما هوى صنمه في أعماقي وانكشفت حقيقته لعيني وسئمت الطفلة محروقة الخدين خبزه الشائك وماءه المر ، انتزعت صورته لتبدو صورة حسان من جديد .. هازئة .. ساخرة متحدية .. وأغلق نوافذ غرفتي لئلا أسمع صدى الحافلة الكهربائية .. « لست أدري لماذا يصبح صوتها ممزقاً رهيباً حينما أكون وحيدة دون صديق . وأحس ان لضجيجها وضحكات ركابها ابراً نارية تنغرس في عيني الخافتين المتوترتين كلسان وحش هارب . ويخيل إلي انى أرى من خلال الستائر المسدلة على النافذة كتلة من اللحم والدم المعجون ، مرمية فوق القضبان تلتمع في ضوء القمر وتتأوه كلما مر الترام من جديد .. »

أجل أحببت حسان الشاب الذي أبحث عنه وأعرف اني لن ألقاه أبداً .. الرجل الذي رسمته أحلامي ولونته بغبار أوهامي .. حنوناً قوياً مخلصاً وفياً .. لم أجد ظل هذا الرجل على الأرض حتى رأيت الربيع يرقص في عينيك يا زياد .. وتلذذت بالجو الذي تخلقه حولك .. عالمك المشحون بالرجولة والفهم العميق .. واندفعت في حبك مجنونة لا أعي .. ظمأى لا أرتوي .. ومزقت الصور كلها ووضعت صورتك فوق صورة حسان .

فقد صرت أنت وحسان شخصاً واحداً .. والآن أحلامي رماد تذروه الرياح حينما تقول لي : « باردة » ... أخشى أن تكون كالقطيع .. تحبني إذا امتلكتني .. إذا وهبتك أتفه ما أملك . أما الطفلة محروقة الخدين .. ادعيتها الصامتة وهواها الخاشع .. وحدتها وحيرتها .. ضياعها ولهفتها . فلا وزن لها لديك .. يدك لا تحتوي عليها . شفتاك لا تمسح خديها المحروقين .. اذنك لا تتلذذ إلا بالتأوه الفاجر والحشرجة المخنوقة وطفلتي محروقة الخدين تود لو تهمس في أذنك حديثاً رقيقاً مرتعشاً كجنحي عصفور .

سئمت حديثي يا زياد لأنك لا تسمعه .. انك لا ترى في عيني سوى آبار الكتمان .. إنك لا تسمع هذيان صمتي . أنا كتلة من برود .. وكرامتي تأبى عليّ أن أنطق .. انك تدير محرك السيارة . ها هي ذي تدرج بنا لنعود إلى المدينة .. مدينتي البلهاء تزينت بالأنوار الملونة ولكنها لن تضيء .. لن تضيء زوايا القلوب المغلقة .. ضجيجها يسحقني .. يزيد في عذاب الطفلة محروقة الخدين التي تنسلّ الآن من المستنقع أصفر الخضرة ، بينما أقبع أنا في ركن السيارة أراقب طرف وجهك القوي وشفتيك المعبودتين اللتين تهمسان : « باردة » .

أحبك يا زياد .. ولكنني أريد أن أعرف من أنت . أريد أن أرى الماء يتفجر من الصخر حين يمنحني رجل حباً وعطفاً لقاء أغاني الطفلة محروقة الخدين لا لقاء جسد أسمر .. أحبك يا زياد .. وحبي لك خلق في نفسي الجرأة على التساؤل عن حبك .. عن الحب .. هل هو خدعة لصبغ رغباتنا الترابية الحمر بألوان سامية فخمة ؟ .. هل ثقافتنا ونعومتنا وثيابنا النظيفة ورائحة العطر في عنقي وذقنك الحليقة مجرد خداع ؟ مجرد ترتيل ديني كاذب في أودية الرغبة الرطبة الحارة ؟

سئمت أوثاني وسئمت « حساني » . أريد أن أرى كل شيء على حقيقته .. أريد أن تكون صادقاً .. أن تقول لي : « أنا أشتهيك » ، فأمنحك

نفسي راضية مستريحة .. ولكن .. لا تقل لي انك تحب طفلتي محروقة الخدين بينما تتحسس ذراعاك وليمة الضياع في جسدي !

لا شيء سوى جسد منتفض محموم ، وجبين يسكب حبات العرق المراهق ، وكل ما عداه مقدمات وطقوس وفتات حنان ترمي بسأم إلى الطفلة محروقة الخدين . أصبحت أخجل حينما أقول لك : « أحبك » . ها قد وصلنا إلى المدينة المجنونة . عيونها الماكرة تسخر مني .. (تهرب الطفلة إلى كهف مظلم .. تسدل شعرها فوق وجهها كي لا ترى شيئاً) .. الناس كالقطيع الشارد على الأرصفة الرمادية والظلال في عيني المتعبتين أكثر منها في زوايا الشارع والأزقة الضيقة .. وأنا هنا في ركن سيارتك أرقب وجهك القوي وذراعيك .. انك تستطيع أن تحميني من نفسي وخوفي ورعبي لو أردت .. أنا أكره الزحام ، والمحلات العامة التي تبصق أكداس الناس كالذباب الميت ، وأكره الوجوه الملوثة بالأحمر بينما الغدر الأصفر يعوي من المسام المفتوحة .. أنا خائفة أود أن تخفيني في صدرك العريض .. ان تقول انك لي وحدي دائماً .. انك تحبني .. تحب عذابي ولهيبي ، صمتي ونحيبي .. أحس ان أقدام الناس المسرعة تتحرك فوق رأسي وتهوي كالمطارق بلا رحمة .. أكاد أنهار وأهوي على صدرك .. أهوي بذل واستسلام وأستجدي خبز عطفك المسموم وينبوع حنانك الجاف .. الطفلة محروقة الخدين تدور في أعماقي مذعورة وأنت تنظر إلى وجهي بين الفينة والفينة وتغمغم بأسف: « باردة ... باردة » . النيران تشتعل تحت قدمي الطفلة ولكنك لا تشم رائحة الدخان ولا تسمعها وهي تزمجر: «لن أعب من السراب بعد اليوم .. أريد ماء منعشاً كنسيم ليالي الصيف .. نقياً كالدمع . خالداً كالحب الحقيقي .. سأنبذ غيبوبتي وأحيا أو أموت .. »

وصلت إلى داري .. أمد لك يداً ميتة ، أنظر إليك للمرة الأخيرة وأنت تردد ساخراً آسفاً : « وداعاً .. يا باردة » ... اكره غرفتي والنافذة المفتوحة

على ضجيج الشارع .. انني أغلق النوافذ كلها .. أرمي بثيابي على السرير والأرض والمقعد .. أحب أن أرى ثيابي تتناثر بفوضى .. انها توحي بالحركة ، بالحياة غير المفتعلة .. ثورة جارفة في أعماقي .. اكره مثلي وحسان واكره الطفلة محروقة الخدين .. فقد أمسيت بسببهم مثار سخرية زياد .. امسك صورة حسان . كم أحن إليه ، انه مراهقتي .. انه الاخلاص والوفاء ولكنه لا يضم ! انه المثل التي طالما عبدتها ولكنها لم تتحرك وتحمني ، لم تتجسد في انسان .. عبث .. كل ما فعلته عبث وكل ما قد أفعله عبث !

في الصحراء الواسعة النقية أحسست ان الطفلة عملاقة .. أما هنا .. في المدينة المزدحمة المدمرة الساحقة ، فان خدي الطفلة يزدادان احتراقاً وسواداً وأنا هنا أحس بضياعي .. لم أعد أعرف ماذا أريد .. أنا بحاجة إلى إنسان يضمني .. يملأ أذني الخائفتين بحديث ساحر لا يقوى صرير الحافلة الكهربائية ولا حقد الناس على اختراقه .. انني أخاف دقات الساعة الباردة الوحشية كنواح الغربان في وديان الابدية .. الحافلة الكهربائية تمر .. دواليبها تصر صريراً حاداً كمنشار همجي ينغرس في رأسي .. أفتح نافذتي بجرأة وانظر بحدة .. (على القضبان كتلة من اللحم والدم المعجون قالوا ذات مرة انها أمي) .. امسك بصورة حسان وأنا أضحك منها بذعر وتمرد أحمر .. انني أمزقها .. أمزقها .. أطل من النافذة على العالم القذر وأرمي ببقايا حسان .. تتلقفها الرياح بشراهة وتنثرها .. عيناه استقرتا في تجويف الشريط الحديدي حيث ستمر الحافلة بعد دقائق .. عينا حسان ! .. بركتا الضياء .. تتبخران في الضوضاء الفارغة .. يسحقها صرير الحافلة .. ويعجنها ببقايا أمي .. ليضحك القطيع بوحشية ، فحشرة تافهة تنضم اليوم إليه .. أتوق إلى السير في الشوارع الصاخبة والتسلل بين السيارات عند المنعطفات الخطرة ، حيث تمر سيارة سائقها مشغول بمغازلة صديقة زوجته ، وتنثر على وجهي وثيابي بعضاً من برك الوحل المبعثرة في الطريق .. فتلوثني .. تلوثني .. أحن

إلى التمرغ مع الناس في برك الطين .. أنا اليوم واحدة منهم .. طين معجون بخمرة اللاوعي .. ليسخر مني صرير أحذية السكارى المتخبطين ، فأنا حشرة تتأهب لتخوض سواقي الدم والتفاهة والرياء .. أنا سلعة جديدة في سوق الجواري جردتها من إنسانيتها ومثلها آلية العواطف المتبادلة وسطحيتها ..

أين ذراعاك يا زياد .. أحن إلى كلماتك الحنون صادقة كانت أم كاذبة ، وحدتي المجنونة ترضى بالفتات .. عادت الحافلة .. انها تقترب .. مقدمتها المضيئة تلهب وجنتي .. نظراتي تتعلق بدواليبها الحديدية المذهلة التي تدور وتسحق كل شيء .. والركاب ضاحكون لاهون . عينا حسان اللتان استقرتا على الخط الحديدي المجوف تنظران إلي بيأس خلال الظلمة — أو هكذا يخيل إلي — لكنني لا أستطيع الحراك .. الحافلة تطحن عينيه وأنا أتنهد بارتياح دام ممزق .. يهوي عالم في أعماقي .. تهوي أصنام وأصنام .. كل شيء يهدأ بسرعة ولا يخلف سوى الرماد والحطام .

أسدل شعري بعنف على خدي كغانية محنكة .. اسرع إلى الهاتف لأعتذر لزياد عن برودي ، وأضرب له موعداً غداً في أحد الملاهي الصاخبة .. غداً .. حينما أضحك له بعينين زجاجيتين ، وأزين مائدته باللحم الأسمر ، سيقول اني حارة ، لن يشعر بغياب طفلتي محروقة الخدين . لا أحد في مدينتي يحب الأطفال محروقي الخدود ..

سماعة الهاتف تهتز في يدي بينما تضحك أنت فرحاً بعودتي واستغفاري . انهار على البلاط البارد وأركع على ركبتي .. الطفلة محروقة الخدين تركض في دهاليز حلزونية سود تضج بالعناكب والفراغ وهي تنتحب في شبه أنين مكتوم تلاحقها عجلات ترام تعوي مسعورة في ليل الأعماق .. ويغيبها الظلام وتلفها سحب الضياع والعدم في مغاور إنسانية لا قرار لها ..

ما زال حديثنا التلفوني الحار متصلاً وأنا أحدثك بغنج ودلال .. يمر ترام جديد يمزق السكون فيطغى صريره على صوتينا وعلى ضحكاتنا ..

وعلى أنين الطفلة محروقة الخدين في أعماقي ..

وأقف قريباً من النافذة وأحدق إلى الترام والساعة في يدي وصوتك في أذني .. باردة .. بلهاء .. عيناي تنبشان الاسفلت الرمادي بحثاً عن كتلة الدم واللحم المعجون التي قالوا انها امي ، بينما شفتاي كشفاه دمى مدينتي المزيفة .. تضربان موعداً للعشيق الجديد .

رجل في الزقاق

ما زلت مغروسة أمام نافذة غرفة الجلوس وقد الصقت جبيني بزجاجها البارد ، منتظرة مرور رجلي كعادته كل أمسية . الشتاء ينسل في عروق بلدتي المنعزلة ، الزقاق الضيق الطويل مثبت باهمال تحت أسياخ الظلام التي سلخت كل آثار الشمس المريضة .. البيوت المحشورة على جانبي الطريق تكدس ظلالها المتعبة الباهتة في برك النور المتجمدة ..

بعد قليل يمر الهي الممسوخ ! الرجل الذي عبدته دون أن أعرف عنه شيئاً ، وانتظرت مروره مرتين عند هذه النافذة كل يوم .. « نظراتي النهمة تتمسح بكتفيه ورقبته وتتوسل إليه بهوان ذئب أليف أن يقرع الباب ، ويدفع ثمن الشباب ، ويحمل إلى داره طفولتي » .. انه الرجل الثالث في حياتي ..

ظل أبي الرجل الأول حتى كدت أبلغ الرابعة عشرة .. ظل ينتزعني من مساكب الشمس في أرصفة زقاقنا ويحملني بين ذراعيه الحانيتين مدللاً حتى صبيحة ذلك اليوم المشؤوم . أحس وهجه في أضلعي وكأنه لم يمض على انصرافه خمسة أعوام كاملة !! .. كنت أقف على اطار هذه النافذة بالذات أمسح زجاجها بحيوية أربعة عشرة عاماً ، ثوبي الحريري يكاد يتمزق عن جسدي .. الفجر الوليد ينسكب من صدري وزندي .. كنت أعمل بحماسة كي لا أتأخر عن موعد مدرستي .. أدندن بأغنية حالمة تحكي قصة فراشة ظلت تناضل حتى ثقبت شرنقتها المهترئة وانطلقت مرحة تغازل نجوم السماء .. لا أدري كيف حانت مني التفاتة ورأيت أبي يقف أمام باب الغرفة مشدوهاً ..

نظراته عالقة بصدري حيث انتفض برعمان متمردان ، يدفعان الثوب بتحدّ .. بقوة الحياة .. بوحشية فطرية .. بصراحة بريئة الفجور .. تشنجت نظراته هناك ولاح فيها صراع قصير الأمد ، ثم استقر تعبيرها وتبدّى فيها بعض من رعب خفي وحقد مبهم غريزي . وكأنه كان يسمع الصدر البكر صارخاً متحدياً : « لا يمكن أن تظل دميتك المدللة إلى الأبد .. ألا ترى انها امرأة ؟ هي جدتك التي كان ينهرها أبوك ، وأمك التي كان يضربها ، وزوجتك التي تجفف لك كل ليلة قدميك »

.. لحظة مشحونة مريعة انتصبت بيننا وأفسدت ما سبق من ودنا وتقاربنا .. سحب ضبابية سودها تعاقب الأجيال ضجت وثارت في دمه حتى ابتلعت الحنان والاطمئنان في العينين .. عاصفة غبار نتن هبّت عن قبور سحيقة .. عربدت ذراتها وتأججت بيننا .. حجبت عني دفء محبته وثقته .. جليد حقد مبهم تطفّل على البسمة الحنون وظل كالعلق يمتصّ من صفائها حتى أحالها إلى تكشيرة مقيتة تفور بالاستهتار والتحامل على أنوثتي .. حدث هذا كله في أقل من ثوان .. في التقاء نظراتنا .. وشعرت بايحاء مكهرب !

إنني أتيت جرماً منكراً ! .. إن مجرد كوني امرأة عار لا يغتفر .. ان في صدري وبروزه خيانة لصداقتي مع أبي ..

ودون وعي مني ، قوّست كتفي إلى الداخل ، وكأنني أستطيع إخفاء صدري عن لسع نظراته ، رميت بالفرشاة ، قفزت عن النافذة وانفلتّ هاربة إلى غرفتي ، أبكي دون ما سبب واضح ، فنحن لم نتبادل أي حوار !! .. لكنني فهمته جيداً كما فهمني ..

ما زلت واقفة أمام النافذة ، صدري يضج بعويل مبهم الانات ثار واستيقظ منذ ذلك اليوم المشؤوم .. فيه بعض من صرخات طفلة موؤودة في عصر ما .. وفيه بعض من نحيب أمي المختلس في غرفة نائية الجدران .. وفيه من مذلة اخواتي الثلاث اللواتي تزوجن بعد أن زارتنا «خاطبة » ثرثارة

تشبه الساحرات ..

ما زلت مغروسة أمام النافذة !

أنفاس أمي وأبي المتكاسلة تتهاوى فوق الزجاج البارد .. خيبة مريرة تنضح من احساسي المبهم بالذنب والعار .. الاحساس الذي تضخم مع امتلاء قامتي وتغذى من ضيق أبي المهين وتجهمه ..

أرجو ألا يتأخر أخي كعادته كل ليلة.. أخي.. الرجل الثاني في حياتي.. رفيق دربي أربع مرات في اليوم ، وحارسي الأمين أثناء ذهابي إلى مدرستي الثانوية .. « لا مانع من أن تظل في المدرسة ما دام ليس فيها أساتذة شباب !! » لا فرق لدى أبي سواء نجحت أم رسبت . درست أم أهملت .. المهم انتظار الرجل الذي يخلصه مني ، من مصيبته الرابعة المغروسة أمام النافذة .. مني أنا !

وأنا ما زلت أنتظر مرور الهي الممسوخ !

الذكريات المؤلمة ترقص على الزجاج أمامي .. تقفز منه لتنهش من هدوئي .. وأرى يوم انتهت سنو دراستي الثانوية وسجنت في الدار .. أرتدي ثوبي الأحمر الضيق ، وأعرض على الخاطبات رشاقتي .. أدور أمامهن وأحلم بالعاصمة الملونة .. بجامعة فوارة الشباب ، نهبت حيويتها وصخبها واثارتها مع منابع الشمس .. مقاعد طويلة تزدحم بالشبان والفتيات .. أيام تزخر بحياة حقيقية الامتلاء .. محاولة وخيبة ، نجاح وفشل ، حرارة تجربة ونشوة نصر ، خطأ وضياع وايمان .. متناقضات من ليونة حقيقة وصلابة وهم .. أحلم بكلية الطب التي شغفت بها حباً ، أخلق من الأوهام زملاء أقف أمامهم في فناء الجامعة بثيابي المحتشمة ، نظيفة الوجه ، معقوصة الشعر ، وقد فردت كتفي وشددت صدري إلى الخارج .. لماذا لم أجروء يوماً على أن أبوح بهذا كله لأبي ؟؟..

صوتي الذليل الذي رجوته به كي يسمح لي بالذهاب إلى دمشق يرتعش

الآن أمامي في زجاج النافذة .. دوائره المتسعة تضيق وتضيق حول عنقي فتدميه : « أبي .. أرجوك .. أعني هل من الممكن .. أقصد .. هل يمكن أن أحلم بالذهاب إلى كلية الطب » ..

وكم كان جوابه مختصراً وبليغاً : صفعة على خدي ، بصقة إلى الأرض .. وتخبط الحلم الذهبي بين سنابك واقعي ...

ما زلت مغروسة أمام النافذة أنتظر مرور أحمد بينما صوت « نارجيلة » أبي الكسول ينهش من أعصابي ببطء محموم .. فأحس الجمر في حلقي .. والدخان في عيني وأنفي ، كم تزينت وتسللت إلى هذه النافذة في وضح النهار منتظرة مرور أحمد .. أعرض عليه مفاتني بقدر ما تسمح النافذة الضيقة ورعبي من أن يضبطني أبي .. كم تأوهت وانتحبت .. ابتسمت وغمزت « حركات تثير اشمئزازي ولا أملك سواها » حتى أحس بوقفتي بعد أشهر من عذابي ، وأضحى يتكرم برفع حاجبيه قليلاً ربما يرشقني بنظرة فخور ، ثم يعود إلى مشيته القوية . ولا أملك إلا ان أحبه ..

وأحببته مبهماً مثيراً .. وأحببته شبحاً تحوك أمي وجاراتها أساطير طويلة عنه . خيالاً لا أعرف عنه سوى جسد غامض يتحرك ليلاً في الزقاق الضيق ، يغسله نور الشارع . ضوء يتفجر من ركبتيه ، يتلوى بغبطة عند خصره ، يرتد عن صدره العريض ليعود ويضم رقبته .. أحببته وهماً نائياً ساحر البعد .. مدينة عجيبة الالتماع ، لم يسمح لي بالدخول إليها ورؤية أبوابها المهترئة عن كثب ، فظللت أعبدها مضيئة غامضة لذيذة الرعب .. أحببته جزيرة مرجان ضبابية غارقة في بحار فيروزية .. وأنا على الشاطىء القفر .. تشدني إليه نظرات أبي وذعر أمي .. ولا أملك إلا أن أعبد المرجان .. أنشد من أبخرة الوهم تراتيل أشجى من أنين عرائس البحر .. لو تُركت أخوض في اللجة الفيروزية .. أجرب برد الماء وقذارة الماء ووعر الجزيرة .. لو كان لي بعض حريتي لأدركت منذ زمن طويل ان أحمد الذي سحرني

بشاربيه الرفيعين رجل متزوج وشبه أمي ! .. وان هوايته تحنيط النساء .
ولجنبت الفرحة البلهاء يوم جاءت أمه تخطبني زوجة ثالثة بعد أن سحرته غمزاتي ، واشاراتي السخيفة عند هذه النافذة ! يومئذ استيقظت من الحلم الكريه وفوجئت بواقع أشد كراهة ! أحمد غني .. وأبي لا يجد مانعاً — بل ويصر — على زواجي به ! ..

الخواطر المؤلمة تفيض من جوارحي ، وكل شيء يلوح الليلة غريباً مهزوزاً لعيني .. القمر يرتجف .. يود أن ينطلق مذعوراً إلى حيث يغرق في شمس ما ويضيع .. يتلاشى .. لكنه مقيد هنا في كبد سماء الشتاء .. يرتجف ذليلاً زائغ الظلال .. ينثر فضته مكرهاً ، ذله واستسلامه يثيران حقدي واشمئزازي .. يجب أن أهرب بنفسي .. ان أحطم سلاسل تشدني إلى شرنقة مهترئة .. يجب أن أكون طبيبة .. أتوق إلى الارتماء في الحياة .. يا لنيران هذه الغرفة .. انها تتأوه برداً .. تحترق دون أن تضيء .. ترمي ظلالها المتعبة على وجه أمي القابعة إلى جانبها كثيبة الذل .. وعلى عيني أبي القاسيتين اللتين أحس انه يغرس نظراتهما في ظهري كي التفت إليه ، أنفاسه المتسارعة توحي بأنه يود أن يحدثني ، لكنني سأصمد . لن ألتفت هذه المرة إلا إذا ناداني باسمي .. لم أسمعه وهو يلفظه منذ زمن طويل .. حتى لو ناداني .. فانني لن أجرؤ على النظر إلى وجهه ، فأنا أرى خلال رعبي كل ما في الغرفة ، وأشعر بتيارات الغضب المتوهجة من مسام وجهه المتفتحة وأوداجه المتهدجة ..

إنها الثامنة وأخي لم يعد بعد !!.. أعرف ما سيحدث بعد ساعات عندما ينتصف الليل ويدخل مترنحاً .. يثور الوالد كالعادة ، يتهجم عليه جاهلاً أو متجاهلاً انه سبب مأساته .. تبكي أمي وتندب حظها الذي ابتلاها بأربع بنات وشاب وحيد خذل زوجها الذي يريد أن يكون ابنه طبيباً .. ينتهي الشجار بسرعة بعد أن تتلقى أمي بعض الصفعات الموجهة

أصلاً إلى أخي .. وأتمزق أنا في الركن المظلم ، ويخيل إليّ انه يتعمد أن تسقط ضرباته على وجهها هي ، وانها أصبحت تفهم ذلك وترضى به في استسلام .. بل انني أشعر بأن أخي يدرك ذلك كله وتتفتت أعماقه بقدر ما تسمح لها أبخرة الخمر بذلك ثم يذهب كل إلى فراشه .. وتنام أمي كأن شيئاً لم يكن ! .. ويقضي أبي صبيحة اليوم التالي متوسلاً إلى أخي تارة ومتوعداً تارة أخرى ليقنعه بالذهاب إلى كلية الطب .. ويظل أخي مصراً على دراسة الموسيقى أو البقاء عاطلاً هكذا .. وتعلو الاصوات بينما أنا في الركن المظلم حيث نسيت الشمس أن تشرق .. أموت شوقاً للثوب الأبيض والمخبر ورائحة الكتب السميكة ... تذبح أمام عمري فوق عتبة النافذة .. وأخي مشرد ممزق يدفن عذابه في الخمرة وفي شوارع البلدة النائية وصدى يلاحقه : « أنا .. ما عندي بنات دكاترة ولا ولاد مزيكاتية .. »

ما زلت أنتظر أحمد أمام النافذة .. أحاول عبثاً إخفاء رعشتي وأنا أحس نظرات أبي تنغرس حادة في ظهري .. تنفذ ببرودها إلى عظامي . تختلط بقطرات دمي المذعورة .. برد متعفن القدم ينبع من كل مكان .. من الجدران الصدئة ، من جزر أكلة لحوم في العيون .. من الاسفلت الرمادي الكئيب .. من صرخات أبي وذل أمي وهي تحضر له الماء الساخن .. تجفف قدميه بيديها . أحس البرد المتعفن يتدفق من أطراف أصابعها .. يتكدس عند قدميها .. برد أزرق مريض ينسكب من أجيال تجثم على صدرها .. يتدفق غزيراً . يتدفق من النوافذ .. يملأ البلدة ويغمر زقاقنا .. يرتفع ويرتفع حتى يكاد يخنقني .. يطفىء نيراني وثورتي وتمرد أوهامي .. وأنا أهرب وأهرب من صقيعي الذليل إلى عالم خيالي .. إلى شبح رجل كان يتحرك كل ليلة في الزقاق الضيق ... تمزق مسامير حذائه الصمت بينما تنشق النوافذ على الصفين قليلاً . تنحشر وراءها رؤوس نساء ذليلة .. تتدلى نظراتها إلى الشارع كألسنة كلاب مسعورة اللهاث .. وتظل نظراتها تلعق كتفيه وشفتيه وركبتيه وخصره .. تسجد لرائحة الرجولة المنبعثة حتى من موطىء قدميه ..

وتظل أوهامنا تحرق البخور لأي رجل يمر .. لسر الأسرار .. للغز المغلق المثير .. للنبأ المدهش : رجل في الزقاق ! ! .. وهكذا أحببت أحمد منذ توجت سني دراستي الثانوية بالصفعة والبصقة .. منذ أضحى الزقاق الضيق عالمي ، معبدي ، ترابه المقدس يطأه رجل ليس بأبي ولا أخي . رجل قد يدق بابي ويجرني إلى هيكله الغامض .. هكذا أحببت أحمد ! .. فارساً أسطورياً أجلس وراءه على جواده المسحور وأطوق خصره بذراعي ، بينما يطير بي إلى ليال من سحر ألف ليلة وليلة .. إلى حيث المجهول .. وأنا أهوى وأخشى المجهول ..

لماذا تأخر إلهي المحطم الليلة ؟

أريد أن أراه .. أن أتشفى من نفسي برؤيته !!..

أتشفى من أشهر قضيتها أحلم بكتفيه العريضتين ومشيته المبهمة ، أرمقه وأضاحكه ، أدور أمام أمه كلما حضرت خاطبة مراقبة ، أعرض عليها مفاتني وذلي واستسلامي ، منتظرة أن يحضر ذات ليلة ليشتري جدائلي ويشدني منها إلى داره .. أريد أن أتشفى من ذلي وعاري ..

أبي يتنحنح في مجلسه ويلكز أمي بطرف قدمه .. يتوقف شخيرها المتقطع وتسأل : « ماذا حدث » ؟ .. يجيبها بخشونة « قولي لابنتك أن ترتدي ثيابها بسرعة .. سيحضر أحمد مع أمه الليلة لقراءة الفاتحة !! »

أتظاهر بأن كلماته لا تعنيني .. لا تحملني في دوامات من جمر نتن وشوك أجرب .. ويخيل إليّ ان في عباراته رعشة خوف مبهمة وكأنه يود التخلص من النبأ بسرعة ، كمجرم يحمل قنبلة مدمرة ويريد أن يرمي بها وينتهي .. أمي تنهض لترتدي ثيابها ، وأنا هنا ، تمثال من برود أمام النافذة يزداد انكماشاً وتجمداً ..

ها هو ذا أحمد يلوح في آخر الزقاق بينما تدب أمه بجانبه .. إنني قنفذ .. أتحرك إلى أحد أطراف النافذة وأتكوم باشمئزاز ، أشواكي تنتصب حادة

متحدية .. جو الغرفة مشحون بانفعالاتي الكارهة .. قامته تقترب في الزقاق وأنا أزداد انكماشاً وشماتة بنفسي .. النور يتفجر من ركبتيه .. يتأوه عند خصره .. يرتد عن صدره العريض ثم يدور بشدة حول رقبته .. وهو يسير بثقة قاسية .. مسامير حذائه تزحف على وجهي في كل خطوة ... القيد ينغرس في لحمي كاوي البرودة .. أريد أن أهرب .. أبي يقف أمامي في يده صفعة وعلى شفتيه بصقة .. أريد أن أهرب .. أمي تجفف قدمي أبي والبرود ينسكب من أصابعها .. أريد أن أهرب . البرود ينسكب من أجيال تعول في صدرها .. يغمر الغرفة ، يغمر الزقاق، يغمر حنقي وتمردي ويجمد ثورتي .. أحمد يقترب .. مسامير حذائه تنغرس في مقلتي خطوة إثر خطوة .. رؤوس النساء تنحشر وراء النوافذ ونظراتها تلعق موطىء قدميه ..

جاء في موكبه المريع بعد أن ناديته ليالي وليالي بعينين معصبتين .. انه يقترب .. انه يقترب وأنا ما زلت واقفة ، كتلة من صقيع ..

لماذا لا يتحرك الصقيع الابله في ذرات المعادن والأجسام الساكنة ؟ يتناثر ثلجاً ناصعاً .. ثلجاً يفور بعنف في الشوارع .. بصراحة .. بعري مذهل الصدق مخيف البياض ؟ الباب يقرع ، أبي يصرخ « ارتدي ثيابك وتعالي .. وصل أحمد وأمه ! » ..

أركض إلى غرفتي ، السأم المتمرد يتناثر تحت أقدامي ، أحشر صدري وردفي في ثوبي الأحمر الذي أعدته أمي ضيقاً مثيراً لأرتديه كلما جاءت خاطبة .. أرفع خصل شعري بينما يتدفق في كل شعرة تيار ألم مرير الذل .. أقف أمام المرآة .. أرقب رقبتي البيضاء الشاحبة كعذراء مغتصبة .. أتحسس بأسف كتفي وساعدي ..

أمي تفتح الباب فجأة صائحة : « ألم تنتهي بعد ؟ أحمد يريد أن يراك قبل أن نتفق على المهر ! » أسير وراءها بذهول .. أمي .. أمي تصرخ اليوم وتتنمر .. نسيت كيف اشتراها أبي ذات مرة .. لتسكبنا على الأرض بلا

احساس بالخلق والإبداع كأية آلة تفريخ .. وأنا أيضاً .. علي أن أقتنع وأقنع .. أن أصمت وأتقدم ..

أدخل غرفة الرعب ، يجلس في أحد الأركان أحمد وأبي يتسامران .. شكله يختلف كثيراً عن رجلي المتخطر في الزقاق . إنه كريه المنظر ، كريه الرائحة . كريه البرود ! ! . يذكرني بالمقبرة في الجانب الآخر من البلدة .. نظرة أبي القاسية تنسكب فوق رأسي ، انني أدور أمام الرجل متظاهرة بتقديم كأس ماء .. أعرض عليه غنائمه .. عيناي تصرخان به : ارفع الثمن .. ألا ترى الخصر النحيل ؟ ارفع الثمن ! ألا ترى عناقيد العطر الشفافة وسلاسل الليل ؟ .. ارفع الثمن ! .. فأنا ذليلة لا أثور إذا عرفت انك تخون .. وأنا سأبكي ذات يوم إذا مرضت ، لا خوفاً عليك ولكن خوفاً من أن أموت وأولادي جوعاً .. وسأنتحب بصمت إذا ما عدت ذات ليلة وحمرة شفاه رخيصة تلطخ قميصك ... فالمفروض انني غبية ومطيعة .. ذكائي يتوقف عند مساعدتك على خلع حذائك ، وصلتي بك تنتهي عند حافة فراشك ، حيث تخرج أنت إلى عالمك .. عالم الرجل .. وأنا أدرك هذا كله فأرفع الثمن ! ! ..

نظراته ما زالت تنبش الثوب الضيق .. تنغرس في اللحم الطري حيث اوزن ببرود لا انساني .. بعد دقائق وانضم إلى أمي وجداتي ، اجتّر همسات الزقاق الضيق ، والعق بأوهامي أجساد العابرين ..

للمرة الأخيرة أنظر إلى عيني أبي غاضبة مستنجدة .. يصعقني بريقهما الوحشي كلما دق بابنا خاطب .. يخيل إلي انني رأيته في ألف ألف جيل ولدت فيها قبل أن أولد هنا . رأيته منذ أكثر من ألف عام في الصحراء .. بينما كانت عباءة أبي تطير وراءه ومخالبه العشرة تنبش الرمال وتحضر لوأد سنواتي العشر ! وأراه الآن وأنا أكاد أدفن في صدر رجل مجهول ..
صوت أبي يوقظني : « انها موافقة ، وصمتها الذي تراه مظهر

خجلها » وأهوي من جديد .. سأكون لهذا الرجل مدى الحياة ..

شفاه كل من في الغرفة تدمدم .. لعلهم يقرأون الفاتحة .. وأنا أسحق بين مد الدوامة وجزرها ..

الآن أدرك ما الذي كان يدفع بجارنا إلى العودة كل ليلة بقميص ملطخ بأحمر شفاه رخيص .. انه يجد عند الأخرى قذارة .. ولكنها عارية .. صادقة العري ، فاجرة البوح بالشر الحقيقي .. وهو يفضل هذا كله على فضيلة زوجته المكرهة المزيفة ..

انفجر البركان .. انسكب المطر .. هدرت السيول .. انهض والشرر يتطاير من مسامي وشعري وأناملي .. نظرات أبي المذعورة تستوقفني قبل أن أخرج من الغرفة صارخة « لن أتزوج من هذا الرجل .. أريد أن أتمم دراستي » . أحمد يتضاءل أمامي .. يتضاءل .. يستحيل إلى قزم .. يتسلل من دارنا مع أمه ، وأنا أردد بلذة محمومة : أريد ... أريد .. للمرة الأولى اتجرأ على أن ألفظ كلمة « أريد » ! .

أمي وزوجها ينظران إلي بذعر ولا يقويان على الكلام . ذلي المتمرد عقد لسانهما .. حنقي المسعور أيقظها وأنا أردد : « سأذهب غداً إلى الجامعة » ..

نخيل إليّ ان أبي قد ينهار إلى الأرض في إحدى نوباته القلبية .. أحبه .. أتمنى أن أغسل عن وجهه غبار التعب . لكني لن أفعل .. لن أتراجع هذه المرة .. يجب أن يكون هنالك ضحايا .. يجب أن أتحرك ... ان يتدفق سيل من الأنوار الدافئة .. يتراجع أمامه الصقيع الأزرق .. وأهتف بأبي : « امنحني ثقتك وبركتك .. فلا مفر من أن أذهب إلى الجامعة يا أبي .. »

وينسحب من الغرفة وقد حنا رأسه أكثر من عادته .. وأمي تتبعه إلى حجرتها صامتة وفي ركن عينيها رضى خفي وسعادة مبهمة ..

بينما اتجهت أنا إلى النافذة الزجاجية لأحلم بالارواب البيضاء ورائحة المختبرات .

في سن والدي

(*) تُرجمت هذه القصة إلى الإسبانية

حديقة الفندق تعبٌّ من نزف الأفق ، الظلال الدامية تنسكب على الغابة الموحشة الهاجعة أمامنا ، تتوهج فوق السيارات المصطفة في الساحة السفلى تلتهب بها وجوه النسوة ، تمتزج مع ألحان العازفين العذبة في تهويمة الهية يزحف الراقصون معها إلى كهوف النشوة والسعادة .

أمي جميلة في ثيابها السود ، صديقتها الثرثارة تحرك فكها الأسفل ويلوح لسانها النابض وكأنه ذو شطرين . المقعد الذي أجلس عليه ملصق بالافريز الحديدي الملون ، وقريب جداً من سيارة بهاء .. قال انها سيرحلان عند الغروب .. بعد لحظات ينطلقان إلى حيث لا أراه أبداً ، كما مضى أبي منذ أشهر .. أعرف أين ذهب أبي، أستطيع أن أنقل باقة البنفسج التي كان يحبها من غرفته إلى قبره الرخامي . أما بهاء .. فسيرحل مع الشمس إلى حيث لم يلحق بها أحد ..

أغصّ بضحكة عابثة انطلقت من مكان ما . تغيظني . لماذا يضحكون ؟ سيذهب الليلة .. كيف يرقصون ويغازلون ويتنزهون ؟ كيف تظل أغصان الياسمين تنفض شذاها كأن شيئاً لم يحدث ؟ وحيدة . العالم دوامة هازئة لامبالية .. الشمس تجوب مسالك جبال مجهولة .. الليل ينفض دماءه السود . الخريف ينتشي في الظلمة ويزفر أنفاسه في نسمات باردة . ارتعد . أنكمش في مقعدي . أحب كبرياء الخريف واحتضاره الخفي . خريف بهاء ، كم أحببته ! أعوامه الخمسة والأربعون كانت غلالة غموض عميق شدتني إليه منذ الوهلة الأولى . مذ أومأت أمي إلى رجل يمشي في صالة

الفندق قائلة : « هذا أحد أصدقاء والدك الذين أضاعوا شبابهم في اللهو والتنقل » . وسمعت فحيح صديقة أمي يهمس : « لا ريب في انه اختار هذا المصيف المنعزل ليلتقي بإحدى عشيقاته .. سمعت ان عشيقته الأخيرة شقراء .. إنه يتجه نحونا .. »

سكتت عندما مد يده يحيينا ، صافحته أمي بحزن إضافي كأنما تريد أن توحي إليه بأن وجوده ذكرها بالمرحوم والدي وبأنه مدين لها بكمية لا بأس من كلمات التعزية . لكن كلماته كانت مقتضبة . أحسست انني أمام إنسان يكره التملق . يعرف جيداً كيف يدفن الماضي ببساطة ويهتم بالحاضر والمستقبل . وكنت أنا المستقبل . جلس طيلة أمسيته الأولى يداعبني ويحدثني كأنني أعرفه قبل أن أولد . لم يكن كثير الحركة والقلق والضجيج كالشبان ، لكن صوته كان عميقاً ناضجاً مثقلاً بالتجربة . حديثه ألهب كل ثانية من ثواني أعوامي العشرين . ولما نهضت لأنام ، كنت دغلاً تتأجج مجاهله بعدما عاش دهوراً يبحث عن شمس ما .. ولما نبت مع الفجر بين أشجار الغاب ، في اليوم التالي ، قفزت من مقعدي في الحديقة لألقاه .. ولأسمع محاضرته عن فوائد النزهة المبكرة في الغابة .. لم أكن بحاجة إلى اقناع ، كانت رؤيتي له كافية .. وكان الغاب خير رفيق ..

لماذا لا تحدثني أمي وتنقذني من خواطري ؟ ما بالها صامتة ؟ لماذا لا تروي لي — كعادتها طوال الشهر الماضي — ذكرياتها مع أبي وبهاء في الأيام الخوالي ؟ .. لماذا لا تقول لي بلهجة ذات معنى انه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم وضعتني ؟ .. انها صامتة كالموت .. تراها تعرف انني أحب أعوامه الخمسة والأربعين ؟ لا أحب إلا أعوامه الخمسة والأربعين ، أحب شعيراته البيض حين تسطع في أعماقي كأبهى فجر .. وأحب وجهه المجهد وحيويته الضائعة وأحب سحابة الكآبة المبهمة التي تلفه كلما جلس وحيداً ينتظرني ..

أبداً لم يقل ان أيامه مياه جدول تتكسر بين الصخور الصلدة باحثة عن ذرة تراب تسقيها .. عن شيء ما تخلقه وتبدعه ... لم يقل ان لهوه وعبثه بمزقانه .. لكنني فهمت كل شيء ليلة تأملته وهو يجلس وحيداً في الحديقة ..

كانت ليلة هاربة من كهوف الشتاء ، لذا أوى النزلاء إلى غرفهم مع خيوط الظلام الأولى . لم يكن يدري ان أحداً يرقبه ، كان يحدق إلى طير يقفز بحنو حول عصفور صغير خذلته أجنحته الفتية .. اهتمام ملتاع عجيب رقص في عينيه . شيء لزج كالدمع تشبث بمقلتيه ، تنهد بارتياح عندما تمالك العصفور الوليد نفسه وحوم من جديد بينما الطير الكبير يعلو ويهبط حوله بحرص البخيل ، نادى خادم الفندق ، طلب منه فنجاني قهوة ، أتى بهما الخادم وهو يلتفت حوله متعجباً ، أخذ بهاء يعب من الأول بينما أزاح الثاني إلى الجهة المقابلة من المنضدة أمام المقعد الخالي تجاهه ، خيل إلي أن أبخرة الفنجان المهجور كانت تمس أعماقه بدفء مبهم . لم أخيب أمله . جلست أمامه ، أحسست بأنه تضايق . لا يريد أن أفاجئه وأتأمله . أعماقه في تلك اللحظة عارية ، لم تكتشف مجاهلها وشطآنها البنفسجية امرأة بعد ، وتأملته بفضول وألم وتحد .. أبداً لن أنسى وجهه .. كان عميق الحزن صامت الحزن كأبدع وأسمى خريف .. آلامه المبهمة تطل بسمو كقمة جبل بعيد تلفها غلالات ضباب هادئة كالكبرياء . وكان وجهه ندياً كروض عبثت به زخات الخريف المنعشة . خيل إليّ انه يبكي بمسامه ، يبكي بكل حواسه ، ينضح عذاباته بصمت السنديان . لم أقل شيئاً . ظللت صامتة . بعد دقائق سألني :

— هل يضايقك صمتي ؟

أجبته : « ما أحلى الكلمات التي لا نقولها عندما نحس ان الحرف عاجز عن استيعاب انفعالاتنا » .

وانقضت فترة صمت أخرى قبل أن يهمس بصدق عجيب : « أنا أتقن صناعة الكلام والغزل ، أما أنت فسأمنحك صمتي ، هل تقبلين ؟ » ..

لم أجب . لم أهرب بيدي من أتون يده عندما أطبقت عليها دافئة حانية ، منجدة مستنجدة كشفاه ظمأى ..

ولما عاتبتني أمي ليلاً لم أغضب . ولما ذكرتني بأنه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم ولدت أحسست بالزهو والسعادة . قبلتها فجأة وأنا أقول : أحب الخريف يا أمي ... ولما مضيت إلى فراشي لم أنم ، دخلت بعد ساعتين وكأنها تعرف انني لم أنم ، قبلتني بحنان عميق أيقظ مخاوفي ، تمسكت بوسادتي وطلبت منها أن تفتح النافذة لتدخل رائحة الخريف .. لم تقل شيئاً فأيقنت أنها فهمت كل شيء ..

لماذا أستعيد هذا كله ؟ .. نظراتي معلقة بالباب الكبير . بعد لحظات يهبط ليرحل مع شقرائه .. انه لم يحبني . كان ينتظرها .. كنت دميته الصغيرة . لا لم أكن دميته الصغيرة . لماذا أخدع نفسي ؟؟ كنت شيئاً ما في وجوده .. وإلا فلماذا جمدنا منذ أيام بينما كنا عائدين من الغاب ؟ لماذا وقف كتمثال عذاب صلد عندما دخلنا الصالة وأطلت علينا ساعة الفندق العتيقة كشيطان شامت ؟ .. كانت قضبان غطائها الخشبي أنياباً سوداء حانقة . كانت تدق ببلاهة .. بلا توقف ملايين من دقاتها تقف بيننا ضحكاتنا خبت .. الأخاديد في خديه ازدادت عمقاً . أحسست اننا نتقلص والساعة تتسع ، ودقاتها تعلو ، نتقلص . الصالة تظلم . جدرانها ترتفع ، تغيب في السماء . السماء ضيقة وصغيرة وبلا نجوم . الساعة تعول . نتقلص . نحن جرذان في أرض صديدية عفنة . الساعة إله وثني أسنانه السود لا تشبع ، مددت يدي أبحث عن يده . وجدتها متعبة مسترخية بجانبه . أمسكت بها . كل شيء في مكانه وصديقة أمي اللجوج تلقي علينا تحية الصباح بلهجة ذات معنى ، قال فجأة بخشونة : « لن أراقصك الليلة . انني متعب » .. لم أجب . أضاف

كأنه يعذب نفسه : « انت طفلة وشابة لا تتعبين .. أما أنا فقد هرمت .. لا تنسي هذا ، لا تنسي حديث الساعة » .

أمي تبدو الليلة مضطربة . ترقبني من طرف خفي ولا تجد شيئاً .. لماذا لا تثرثر صديقتها الليلة كالعادة ؟ . في وجهها ظلال اسف تكسوها بمسحة، إنسانية لم الحظها من قبل . ماذا حدث لهما ؟ تنتفضان . ها هو بهاء يحمل إحدى حقائبه ويقترب . الشقراء التي وصلت إلى الفندق صباح اليوم تسير إلى جانبه . غيوم في أعماقي . الرعب . التحدي . المصير . لماذا هرب ؟ صواعق الشتاء تزحف وصقيعه كذلك . لماذا يهرب الخريف ؟ فتحنا له نوافذنا وادغالنا .. لماذا يهرب ؟ مواقد الشتاء تملأ أعماقنا بالدخان . الدخان يلون كل شيء . الموسيقى والألوان والناس يغوصون . لا شيء سوى عينيه . يقف أمامي مودعاً . يده تضم يدي بلهفة . أمي تبكي . لا أعتقد أن ذكرى أبي هي السبب . نظراتي تتشبث بوجهه في تمزق يائس .. عشيقته وقفت جانباً . أسلاك شعرها الشقر تغوص في خدي .. وجهه يملأ الكون كله .. وجهه يغطي السماء والوجود بعوالم جديدة من قلق واستسلام وغربة . شفق في عينيه . وجهه يتقلص .. الأسلاك الشقر تبدو من جديد . الضجيج يمد زعانفه وأمي تصافحه بحقد مبهم . لا تتقبل تعزيته ببهجة مازوكية كعادتها . صديقتها اللجوج تتأمل عشيقته بحقد امرأة ! لم أكن أصدق ان مثل هذه المخلوقة تستطيع أن تحقد . يهبطان إلى الساحة . الأضواء تنزلق عن وجهه عندما يغيبه جوف سيارته .. لا أراهما . انها تلتصق به . تحتل مكاني بجانبه . غيمات حنان عينيه تمطرها اطمئناناً وسعادة . الاسفلت يركض تحت العجلات . الظلمة تبتلعهما بنهم . الموسيقى حولي تستحيل عويلاً . الأحذية تقفز . . .. تدور . كعوبها الحديدية تدق فوق دماغي .. تنغرس في رأسي .. الساعة تلوح من بعيد .. تقترب . أسنانها الخشبية تريد أن تمضغني .. المقعد يدفعني عنه ، انطلق . اصطدم بالراقصين . يقفون في وجهي . يحجزونني كي يمضغني شيطان الساعة العتيقة . اختنق .. أدافع عن نفسي كوحش سلطت

على جراحه أضواء العالم كلها. أكافح . أسبح في المحيط الآدمي المتلاطم.. يفسحون لي مكاناً .

أظل أنطلق إلى غرفتي . إلى شرفتي التي تطل على الوادي ... لا ضجيج .. لا إنسان .. لا أحد يحس معي ، الوادي يلوح عميقاً حزيناً خفي القاع ، عالم من خريف وغموض وظلال ، عالم من كبرياء وصمت . لو أهوي فجأة . أتقلب بذعر ثم استسلم للفضاء . امتزج بالعاصفة والطين والاجواء . أنا ذرة دنسة مدارها معزول في فلك من وحشية وعويل ، لا صديق . عواء بعيد حزين ملتاع يصعد إلي من الوادي العميق .. ينتحب في انات إنسانية .. يناديني .. لو أهوي إلى جانبه .. فيتناثر جسدي قطعاً دافئة تظل تنتفض حتى تذوب في الخريف ... يلعق ابن آوى جراحها بحنان . أنا معبد خوف وشوق واشمئزاز ، لو أهوي !

يد على كتفي . أمي تضمني اليها . أدفن وجهي في صدرها وانشج ببؤس ممزق . تقول لي بتعاسة حقيقية : في البداية خشيت عليك من خداعه .. ولكني خشيت عليك أكثر من صدقه ...

لا أجيب . أظل انشج . أبلل صدرها بأساي المفجع ، تضمني بحنان وتقول : « هذه ليست نهاية العالم . أنت شابة وغداً » .. وأقاطعها بتحدٍّ ومكابرة وأنا أردد : مالي وله ؟ من قال انني أحببته . انه في سن والدي .. في سن والدي ...

من قال انني أحببته ؟